الموسوعة الإسلامية للشباب

الإعجاز الوجدانى فى القرآن

دكتور

عايد طه ناصف

مؤسسة حورس الدولية

رقم الإيداع بدار الكتب

الترقيم الدولى I.S.B.N

الناشـــرون

مؤسسة حورس الدولية
للنشر والتوزيع
١٤٤ ش طيبه - سبورتنج - الإسكندرية
ت.ف : ٥٩٢٢١٧١ - ت ٥٩٣٠٥٩٨

المركز الإعلامى للدراسات
والبحوث القومية والاستراتيجية
رئيس المركـــز : د. عايد طه ناصف
مدير التحرير : فوزيـــة الوكيل
المديـر الفنـــي : مهندس خالد ناصف
المديـر العلمـى: رانيا عايد ناصف

٤٥ ش أحمد عرابى - المهندسين
ت : ٠٢/٦٧٤١٨٨٥

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٧ / ٨٨٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-368-082-7

طبعة
٢٠٠٨

الإخراج وفصل الألوان
وحدة التجهيزات الفنية بالمؤسسة
الإخراج الفنى : رحمة الشيخ
مراجعة لغوية: عبد الرحمن الجبالى

تحذير
حقوق الطبع محفوظة للناشر
ويحظر النسخ أو الاقتباس أو التصوير
بأى شكل إلا بموافقـــة خطيـــة من
الناشـــر

الإهداء

إلى الذين يقرءون القرآن بإيمان القلب
وفى حب الله ورسوله،
فما أعظم العطاء الذى يريح السرائر
وينمى الملكات ويُصقل الوجدان،
أهدى هذا الكتاب
راجيا من الله أن يكون علماً ينتفع به

تمهيد

القرآن كتاب الله المعجز، فلو نُزِعت منه لفظة وأَرَادَ الفُصحاءُ والمتفلسفون استبدالها بأُخرى لا يجدون ولا يستطيعون لأن بلاغة القُرآن فى أعلى طبقات السمو، وأرفع درجات الإيجاز والبيان والإجادة.

وأمام هذا الإعجاز يظهر قصور البشر خاصة الفصحاء منهم فهذا الفصيح يضع خطبة أو كتابا أو قصيدة يَبْذُل فيها جل جهده ، ثم لايزال يُنقِّحها سنة كاملة، ولو أعطيت لغيره لبدَّل فيها وغيرَّ ورأى غير ما يرى صاحبه على ما تقتضيه قريحتُه، وبعد ذلك يكون فيها مواضع للنظر والاختلاف.

إلا أن القرآن يَعْلو ولا يُعلى عليه، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه مثمر، وأسفلهُ مغدق وهذه هى مقولة المغيرة فصيح من فصحاء العرب، ولهذا نحن أمام ظاهرة إلهية مُعْجزة نَصْغُر أمامها لأن القرآن الكريم كلام الله، وهو كتاب معجز لفظًا وحَرْفًا وآية وسوراً ومعنىً وعطاءً فلا يدانيه مثله فى حسن النظم ، وبديع الوصف، وغرابة الأسلوب، والإخبار بالغيب ما كان وما يكون وما سوف يكون، وما احتوى عليه من الأمر والنهى والوعد والوعيد، والقصص والحكم ، والمواعظ والأمثال والصدق ، فيه زادٌ للفطرة وسمو للكوامن وصقل للوجدان وشحْذٌ للإدراك .

ووجوه إعجاز القرآن مُتعددة بتعدد اختلاف الاستعدادات الفطرية، والاتجاهات الفكرية.

فمثلا من وجد الإعجاز القرآنى فى كونه مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل وأخبار السابقين .

ومن وجد الإعجاز القرآنى من ناحية رموز الغيبيات التى لا تحيط بها البشرية علماً وحصرا.

ومن وجد الإعجاز القرآنى من ناحية اللفظ ومن السَّبْك، وجزالة الأسلوب.

ومن وجد الاعجاز القرآنى فيما يأتى به من روعة التصوير وسهولة النفاذ إلى الملكات بما يروى فهم الفطرة ويملك على السامع شعوره وزاداً يغذى وجدانه.

ومن يجد الإعجاز القرآنى فى عطائه العلمى الذى لا يحده فكر ولا يصل إليه إدراك ومن يرى الاعجاز القرآنى فى الاعجاز الرقمى والحسابى الذى تَأتى به الحروف والكلمات والآيات والسور وفى تقديرى أن إعجاز القرآن يتجلى فيما أتت به الآية القرآنية الكريمة رقم (١٢) من سورة الاسراء والتى منها:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾

ثم إن إعجاز القرآن يعطى دفقا وزاداً للوجدان بما فيه من بلاغة، ورنَّة قول، ونَغمةُ بيان تُدْرَكُ بتذوُّق الأسماع،

وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاط بالكلام كله علما، فعلم بإحاطته، أى لفظ يسبق الآخرة، وأى معنى يتلوه معنىً آخر ثم أول القرآن يأتى وبعده يأتى آخره.

فحسن سَبْكه يعطى معنى يغزو الروح، وجذالة أسلوبه ينفذ إلى الإدراك، وما فيه من روعة تملك على السامع ساحة وجدانه وملكاته فيتحقق الإمتاع الروحى والوجدانى فما أعظم إعجاز القرآن عطاءً للوجدان.

ومن هنا نجد أن القرآن يُخاطب العقل، ويستثير العاطفة، ويوقظ الانفعالات النفسية، وينعش القوى الوجدانية، ويتحقق ذلك بإعجاز القرآن الكريم، ويُسْر بيانه، مع قدرته على مخاطبة الإنسان فى كل عصر.

ولهذا وجب علينا نحن حملة أقلام الكتابات المعاصرة فى شأن الدعوة إلى سبيل الله أن تتناسب أجتهاداتنا الفكرية وتتلاءم مع مساحة القدرات الذهنية والنفسية والوجدانية لإنسان هذا العصر التائه فى أوهام الرفاهية ، الغارق فى بحور المادة .

فإنسان هذا العصر عجول مشغول تائه مهموم حالم ، تتقاذفه بدع الثقافات والأيديولوجيات التى لا تغنى من جوع ، وتأسره شباك الإعلام البراقة فأحالت أمنه قلقاً ، وبدلت سكينته سباقاً مع إيقاعات العصر .

ومثل هذا الإنسان القلق يحتاج إلى زاد روحى نافذ ومؤثر ، ووجبات ثقافية دينية من نوع متميز ، بعيدة عن الأساليب التى تعنى بالترف العقلى ، أو التى تُتصيد فيها النصوص ويُلعب فيها بالألفاظ .

وأيضاً فإن هذا الإنسان يحتاج إلى هَدْهَدةِ ما بقى له من كوامنَ فطرية ، وإنعاشِ حواسه الوجدانية .

إنه فى حاجة إلى ترويض عقله وتوثيق الصلة بينه وبين الفؤاد، إنه فى حاجة إلى أن يستشعر عظمة الخالق فى قرارة نفسه: ثم إنه فى حاجة إلى أن يختلج فى بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سواه ، وألهمه فجوره وتقواه .

ولا يصلح لذلك إلا بساطة التعبير ، وعذوبة اللفظ ، والإيقاع البديع والمؤثر الذى تصوره المشاهد الإيمانية التى تتعامل مع كلية الظواهر الانفعالية لدى الإنسان خاصة تلك المشاعر والأحاسيس التى تمثل روافدَ وجدانه وبوتقة كوامنه وملكاته .

ثم إن هذا النمط فى التناول هو الأمثل فى تلك الكتابات التى تخاطب العقل لأنها تعبره من خلال القلب فضلا عن استثارة العاطفة وتحقيق توازن الانفعالات النفسية الممثلة فى المشاعر . والأحاسيس التى تُسْمى الوجدان .

وفى تجول القارئ فى صفحات الكتاب خاصة ما يتعلق بالغزوات الوجدانية للرسالة الإسلامية فإنه سوف يجد نفسه متجولا فى بستان القدرة الذى رطب جفاف وجمود عمالقة الجاهلية ، ومعظماً لقدوة الرسول الأعظم ﷺ وأسوته الحسنة ، وبما حقق شخصية إسلامية متميزة فى إطار أمة هى خير أمة أخرجت الناس .

وفى صفحات الأبواب تبرز محصلة الإعجاز الوجدانى للقرآن وأثر المدرسة المحمدية كقدوة فى بناء العقيدة وقدرة على بلورة الحس الدينى الذى يُعمِّر القلوب ويرتقى بالهيكل الوجدانى الممثل فى الملكات والمشاعر والأحاسيس والظواهر الانفعالية فيشكل النسيج الوجدانى الذى يُعد مصفاة لأهواء النفس وخواطر الهوى وكلما ارتقى الوجدان المسلم توثقت علاقة العبد بربه وارتقت ارتباطات القلوب ببديع السماوات والأرض وفى إطار مجتمع إسلامى متميز ومميز .

المؤلف ...

الباب الأول

المعزوفة الوجدانية
التى مهدت لرسالة الإسلام

لم يأت الزاد الوجدانى للقرآن دون معزوفة وجدانية تُمهد لغزو وجدانى لعتاة الجاهلية، وأساطين الكفر والسيادة قبل بعثة محمد ﷺ فلقد كانت الأقدار تمهد الساحة ، وتهئ لمقدم نور وفجر عقيدة.

فكيف كان تدبير القدر ...؟

وكيف كانت العطايا والهبات الوجدانية الإلهية لإعداد الدنيا لاستقبال الرسالة ...؟

وُلِدَ عبد الله بن عبد المطلب عام ٥٤٥ قمرية بعد الميلاد وكان ميلاده ليس كميلاد أحد.

فلقد ولد فى عام كانت فيه إطلالة مذنب هالى على العالمين وكان هذا التاريخ سابقا لإسراء محمد ﷺ بـ ٧٦ سنة قمرية ، فما هى قصة ميلاد عبد الله بن عبد المطلب ..؟

صحت مكة على شىء لم تعهد وحيث تنادى القوم ما بين ساخر ومُسْتَغْرِب ومتهم على سيد من سادات مكة وهو عبد المطلب الذى وجدوه بجانب الكعبة هو وابنه الوحيد الحارث يحفران.

وسأله الناس عما يفعل ...

يا عبد المطلب ما عهدناك تفعل أمرا كهذا .. فماذا ألم بك ..؟

رد عبد المطلب . إنى أبحث عن بئر زمزم..

فقالوا جميعا ولكنها مطمورة منذ مئات السنين ولا أحد يعرف مكانها فلا تجهد نفسك وولدك الوحيد.

فقال لهم: يا سادة مكة لقد جاءنى هاتفٌ فى المنام وقال لى:

- احفر زمزم.

- احفر زمزم .

فقالوا له: من هتف لك ومن حدد لك هذا الموضع...؟

قال: غفوت بجوار الكعبة فسمعتُ هاتفًا يقول: قم واحفر زمزم واستيقظتُ فلم أجد أحداً وظننتُ أن بى وهمٌ أو مَسَّنى الجنُّ.

وفى اليوم التالى نمتُ بجوار الكعبة أيضا فحدث لى ما حدثَ بالأمسِ واستيقظت مذعوراً وقلت فى نفسى.

وأين مكان زمزم حتى أحفرها ...؟!

وفى اليوم الثالث أصابتنى غفوة ثالثة فإذا بالهاتف يقول لى.

استيقظ فسوفَ يأتى غرابُ أسود كبيرٌ لمْ تشهد مثله من قبل.

وسوفَ ينقرُ بمنقارهِ فى مكان بجوار الكعبة وفى هذا المكان تحفر لتجدَ زمزم.

وها أنذا يا قوم أحفرُ زمزم حيثُ أُمرتُ وحيثُ ترَوْنَنِى ..

وتهامس الناس .. وحسدَ رؤساء القبائل عبدَ المطلبِ على هذا الفضل.

وحاولوا منع عبد المطلب عن الاستمرار فى الحفر وقالوا له:

لن نتركك تحفر هذا البئر وحدك، إنها بئر جدنا إسماعيل وسوفَ نساعدَ فى الحفر ليكونَ لنا فيها مِثلُكْ.

قال لهم عبد المطلب:لقد جاءَنى الهاتفُ وأمرنَى بحفرها ولم يأمرنى بأن يشاركنى أحد وإذا شئتم فافعلوا وأخاف إن شاركتمونى ألا نعثر على زمزم.

فدعونى وما أمرت به والخير منها سيكون لنا جميعا.

وكان كلام عبد المطلب مُقنعا ومرضيا وتركه الناس وشأنه.

وبعد أيام من الحفر انفلقت الصحراءُ عن بئر زمزم بئر سيدنا إسماعيل ﴿عليه السلام﴾.

وهتف عبد المطلب لله شاكرا حامدا.

وأقبل شيوخ القبائل ونظروا تدفق الماء فقالوا لعبد المطلب:

أنت الآن أميرنا وصاحب السقاية برغم أنك أقلنا مالا وووولدا.

وكان لهذا وقع شديد الأثر فى نفس عبد المطلب لما يعنيه هذا من معايرة بقلة الأولاد والأموال.

ونظر إلى ابنه الوحيد الحارث وقال:

يا بنى أسمعت ما قالته قريش وغيرها ... ؟

تفخر على بكثرة المال وتتباهى بكثرة البنين والله إن رزقت عشرة من الذكور وبلغوا مبلغ الرجال لأذبحن أحدهم قربانا لله.

ورزق عبد المطلب عشرة من الذكور ووجب عليه تنفيذ ما أقسم عليه وكان ممن رزق به ابنه عبد الله الذى ولد عام ٥٤٥ قمرية بعد الميلاد وكان أصغرهم وهو أحب أبنائه اليه وأقربهم إلى قلبه وأعظمهم مكانة وعقلا وذكاءً وجمالا وكان محبوبا من أهل مكة.

وكان موضع إعجاب الشيوخ والشباب والفتيات والنساء حتى أن بعض فتيات القبائل العريقة الشريفة كن يتلهفن على رؤيته واعتراض طريقه.

إلا أن هناك فتاة من أجمل ما خلق الله وأودع: من الخلق الطاهر والأصالة والنقاءِ هى آمنة بنت وهب. كانت حبيبة الصبا ورفيقة الطفولة شاركته أحلام الطفولة ولازمته براءَتها.

وساعد على ذلك أن قبيلة بنى زهرة التى تنتمى إليها آمنة وقبيلة بنى هاشم التى ينتمى إليها عبد الله كانتا على روابط وثيقة من الود والصداقة والمشاركة فى السراء والضراءِ.

ونشأ بين عبد الله وآمنة منذ الصبا ما ينشأ بين الصبية من حب لا ينتهى بالفراق ومودة لا تُنسى بالتباعد.

ولكن حين بلغت آمنة سن الثامنة حجبها أهلها فى المنزل لأن علامات الأنوثة بدأت تشرق على جسدها.

وبدأت تكبر وأحلامها مع عبد الله.

وبدأ عبد الله يكبر ولا ينساها.

ووفق مشيئة الله تذكر عبد المطلب ما أقسم عليه وأنه وجب عليه ذبح أحد أبنائه العشرة ودعى أبناءَه وقال لهم :

لقد نذرت أن أذبح أحدكم قربانا للآلهة إذا رزقت عشرة أولاد.

فانظروا ماذا أفعل ...؟

قال أولاده: يا أبانا ما نقول إلا كما قال جدنا إسماعيل لأبيه يا أبَتِ افعل ما تؤمر ستجدنا إن شاء الله من الصابرين.

واطمأن عبد المطلب إلى طاعة أبنائه وذهب إلى راعى الأصنام فى الكعبة وطلب منه أن يجرى القرعة ليحدد من سيكون الذبيح وفاءً لوعده ونذره .

وشاع الخبر فى مكة كلها، وفى لمح البرق توافد الناس ليشهدوا قرعة راعى الآلهة.

وأجريت القرعة فإذا عبد الله هو الذبيح وتصايح الناس جميعا يا عبد المطلب لا هذا ولاذاك ابناؤك حرام ذبح أحدهم للآلهة.

وعبد المطلب مصمم على الوفاء بما نذر.

ولكن حينما أصابت القرعة عبد الله زين الشباب وأحب أبناء عبد المطلب لقلبه.

طلب من الراعى إعادة القرعة فأصابت عبد الله.

وينفطر قلب عبد المطلب ويطلب إعادة القرعة للمرة الثالثة فتصيب أيضا عبد الله.

ويعلم عبد المطلب أنه لا بديل ولا راد للقضاء وأقبل بسكينه ليذبح فلذة كبده عبد الله.

وتطايرت أخبار ما يدور بالكعبة إلى مسامع القبائل وبلغهم نبأ إصرار القرعة على إصابة عبد الله، وتصاب مكة كلها فى فؤادها.

وتصاب كل فتاة فى قلبها.

وتحزن كل أم وكأنه ابنها.

وتتسابق الخفقات بإيقاع الحب الفياض لعبد الله وإيقاعات الابتهال إلى كل إله ليغير ما بيد عبد الله من سكين إلى غصن زيتون أو عود ريحان لكى لا يذبح عبد الله .

وتزدحم الكعبة فى هذا اليوم بجموع حولها تبتهل ودموع تتأوه وتشكو وتدعو.

وفى هذا العنفوان من التصميم على الوفاء بالوعد وبالمقابل حنين جارف وإشفاق قوى على عبد الله من جموع تحبه محبة لا توصف.

كانت هذه خفقات قلب آمنة بنت وَهب .

ولأن الله يقدر ويدبر وخيوط قدرته تحرك إرادة عباده ولأنه وضع لعبد الله قدرا ورسالة فى الأرض وأراد ألا يكون عبد الله شيئا عابراً كسائر البشر وأراد أن يكون لوجوده معنى وقيمة وأثرا فى وجدان الخليقة.

فلقد قدر لهذا الصراع أن يحسم بما تراه عرافة من أشهر عرافات عصرها وهى «عرافة خيبر».

ولقد قالت لسادة القوم الذين جاءوها ليروا ما تحكم به.

هل يذبح عبد المطلب ابنه عبد الله...؟

أم أن هناك حلاً وسطاً...؟

قالت العرافة: أليس فى أبيكم اسماعيل عبرة ...؟

أتذكرون جدكم الأكبر إبراهيم حينما رأى فى المنام أن يذبح إسماعيل وحينما هم بذبحه تنفيذا لرؤياه فداه الله بكبش سمين قال الجميع : نعم.

أتقصدين أن نفدى عبد الله بكبش ثمين ...؟

قالت العرافة: لا إنما أعنى أن يكون الفداء بمعيار زمانكم.

فَبِكَمْ تفدون شخصا منكم لو قتل ..؟

قالوا : نفديه بعشرة من الإبل.

قالت: اعملوا قرعة بين عبد الله وبين عشرة من الأبل فإذا أصابت الابل فاذبحوها .. وصمتت.

قالوا: ولو لم تصب الإبل وأصابت عبد الله ؟

قالت: أعيدوا القرعة وفى كل مرة ضاعفوا عدد الإبل حتى تصيب القرعة الجِمال.

وهكذا عاد القوم من فتوى العرافة وقد وجدوا مخرجاً من ذبح عبد الله وأقاموا القرعة وفى كل مرة تصيب عبد الله حتى المرة العاشرة فأصابت الإبل وبذلك يكون فداء عبد الله مائة من الإبل تذبح.

وذبحت الجمال المائة وأكلت قريش وأكلت سباع الصحراء .

إلا أن خبر نجاة عبد الله أدخل الفرح فى كل دار وأصبحت مكة فى أعياد من الفرح والسعادة.

إلا أن هناك قلبا كان أكثر القلوب فرحة وأعمق الأفئدة ارتياحا.

إنه قلب آمنة بنت وهب حبيبة الصمت وحبيبة الروح والتى تعدها العناية الإلهية لأمر هو أعظم أمور الإنسانية ولقدر لا يحمله إلا الأطهار الأبرار.

وتنتقل بنا الأحداث الوجدانية إلى عبد المطلب ليراجع تواليها.

- قم واحفر زمزم.

- غراب لم تر مثله من قبل ينقر بجوار الكعبة ليحدد لك مكان زمزم.

- والله لو رزقت عشراً من الأبناء لأذبحن أحدهم .

- القرعة تحدد الذبيح بابنه عبد الله .

- العرافة تقول أقيموا القرعة حتى تنتهى بالإبل مهما بلغت.

- ذبح مائة من الإبل.

- الناس جميعا سعداء بنجاة عبد الله.

- أليس هذا بشير خير ...؟

- لم لا يكون من نسل عبد الله نسل كريم كما كان لسيدنا إسماعيل..؟

هكذا تواردت الخواطر الوجدانية وتوافدت الآمال فى نفس عبد المطلب وعزم فى نفسه أمرا لماذا لا يزوج عبد الله ...؟

وفى نفس اللحظة وقبل أن يغادر مجلسه دخل عليه «وَهْبُ بن عبد مناف» ليهنئه بنجاة عبد الله.

وقبَّل وهب عبد الله وقال له:

إن نجاتك يا عبد الله هى الفرح الكبير لقريش جميعا.

فأنت زين الشباب وأطهر الأطهار.

لقد كان فى بيتى مأتم لخبر ذبحك.

وقد كان فى بيتى عيد لخبر نجاحك.

إن أعظم الناس حزناً وفرحاً كانت آمنة أتتذكرها يا عبد الله ...؟

رفيقة الصبا وتوأم الطفولة.

وعاودت عبد الله ذكريات الطفولة.

وغاب عبد المطلب للحظات فى تتابع للأحداث ووقع خطى القدر.

وسرعان ما انتبه وقال: يا وهْبُ لقد خطبت آمنة ابنتك لولدى عبد الله.

وكم كان وقع الحدث فى قلب عبد الله، وقلب آمنة وفى قلب كل فتاة فى قريش.

وتزوج عبد الله آمنة:

ونَعِما أياما قليلة كلها حب صادق وعاطفة فياضة ووفاء وحمد للخالق بأن جمعهما فى الطفولة أَصدقاءً وفى الشباب أَطهاراً.

وفى لحظة من لحظات الحب نظرت آمنة إلى زوجها عبد الله لمراجعة نبض الهوى وحس المشاعر الصادقة بينهما وقالت:

عبد الله بعد أن مَنَّ الله عليك بالنجاة من الذبح كنت أَنا فى سعادة لا توصف كانت هذه السعادة تتخللها لحظات حزن وألم لأننى سمعت عن فتيات كريمات من مكة كن يعترضن طريقك ويتحدثن إليك.

وكانت هذه سحابات حزن تمر بخواطرى فتفزعنى.

ماذا كُنَّ يَقُلْنَ لَكَ ...؟

قال عبد الله: يا آمنة هذا صحيح...

ولكن ما كان يدور بينى وبينهن مثار دهشتى لأن ما قلن جميعاً يستحق التفكير فيه.

لقد قالت لى «بنت نوفل» وهى أول من استوقفنى فى الطريق وكان ذلك قبل زواجى بك بيومين.

يا عبد الله: إننى فتاة شريفة طاهرة ولأننى أرى فيك علامات وأنوار تتلألأ فإننى أريد أن أحظى بمشاركتك حياتك لأنعم بهذه الأنوار التى تؤكد أن من نسلك مولود عظيم.

فقلت لها لقد خطبت آمنة بنت وهب.

فقالت وهى تنصرف نعم ما اخترت وهنيئًا لآمنة بالأنوار.

وكذلك اعترضتنى «فاطمة بنت مر» وأنت تعرفينها عرافة تقرأ المستقبل وهى من حسان مكة وأشراف نسائها وقالت مثل ما قالته بنت نوفل.

قالت آمنة: إن فى هذا الأمر لعجباً ...!

تعترضك بنت نوفل وهى أخت ورقة بن نوفل الذى قرأ كتب الأقدمين وتنبأ بنبى هذا الزمان.

وتعترضك فاطمةبنت مر وهى كاهنة مطلعة على كتب السابقين ومعروفة عند العرب بقارئة المستقبل.

وحَمدَا الله بفطرتهما حمداً يليق بما منَّ عليهما وأكرمهما بفضله وفى الصباح استيقظت آمنة متهللة مستبشرة وقالت لقد رأيت فى المنام أن أنواراً تخرج من بطنى فتضىء الدنيا كلها.

وسمعت هاتفاً يقول: لقد حملت يا آمنة بسيد هذه الأمة.

وإذ بطرق على الباب فيدخل عبد المطلب دار ابنه عبد الله وهو يقول له إنك مسافر إلى الشام مع القافلة.

فقالت آمنة: كيف ونحن مازلنا فى الأيام العشر الأُوَل من زواجنا ...؟

قال عبد المطلب: هذه يا بنتى التجارة التى نرتزق منها.

ورحل عبد الله بعد وداع آمنة التى انفطر قلبها على فراقه إلا أن مشيئة الله كانت هداة لخواطرها وإرادته مطمئنة لسرائرها وظلت على أمل العودة تنتظر الحبيب وترتقب الهاتف بعودة الغائبين.

وحملت آمنة وظهرت عليها علامات الحمل.

وقالت فى نفسها حمداً لله أن جعل فى بطنى قطعة من عبد الله تكون عزاءً وسلوى لفراقه حتى يعود.

وعادت القوافل، ولم يعد عبد الله.

لقد مرض فى الطريق عند المدينة فذهب عند أخواله بنى النجار يزورهم ويعالج عندهم حتى يشفى .

إلا أن قدر الله كان أسبق ومات عبد الله ولم يعد.

حزنت مكة كلها على زين شبابها عبد الله بن عبد المطلب إلا أن حزن آمنة يزيد عن حزن العالم كله غير أن شعورها نحو ما فى بطنها وأنه من عبد الله كان عزاءً وسلوى وصبراً.

خيوط قدرية تحرك أمور البشر ...!

وعظمة إلهية تُحسن التدبير والإحكام.

ماذا تريد مشيئة الله ...؟

ماذا سيحدث فى هذا الكون المتفاعل بالجبروت والكفر ...؟

ما الذى تخبئه الأيام والأقدار ...؟

وفى صباح يوم من أيام الله المشهودة جاء عبد المطلب وقال لها:

سنخرج جميعاً من مكة ، ونقيم فى جبالها لأن أبرهة الأشرم ملك صنعاء أتى بجيش جرار يتقدمه فيل كبير يريد هدم الكعبة على من فيها وهو الآن على مشارف مكة.

فهيا بنا يا بنتى حتى يفعل الله أمراً كان مفعولا.

قالت آمنة: يا أبت إن للكعبة ربًا يحميها.

ولا يستطيع أبرهة هذا أن يدخل مكة.

وإن فى بطنى سيد هذه الأمة وسيخرج ليبدد الظلم وينشر النور.

هذا ما يقوله لى دائماً الهاتف.

فلم يستطع عبد المطلب إلا أن ينصرف وهو يقول أحلام ... أحلام .. آمال..

ووسط الفزع والرعب الذى أحدثه جيش ابرهة وفيله جاءَ البشير ليقول هلك جيش أبرهة.. الطير الأبابيل ترميه بحجارة تجعله كالعصف المأكول. هلك أبرهة ومن معه ..

ونجت مكة والكعبة .

وعاد عبد المطلب إلى آمنة وقال لها : صدقت فيما قلت فوالله إنك تحملين فى بطنك سيد هذه الأمه .

لقد برك الفيل الجبار يا آمنة ولم يتحرك وكلما وجهوه تجاه الكعبة ولَّى وأدبر.

فيا بشرانا بمولودك الطاهر.

ووضعت آمنة سيد هذه الأمة وأسمته محمداً لأنها سمعت الهاتف يقول: ستلدين محمداً.

وماتت آمنة، ومحمد لم يبلغ السادسة وعاش فى كنف جده عبد المطلب فكان له أمًا وأبًا عطوفاً .

ولله فى خلقه شئون.

لقد كانت مكة لا تقيم فرحاً منذ وفاة عبد الله بن عبد المطلب زوج آمنة مشاركة لعبد المطلب فى أحزانه ومجاملة له وهذه عادة أصيلة فى العرب تتوارثها الأجيال.

وها قد مر على وفاة عبد الله ما يزيد على ستة أشهر.

ولقد رزقت آمنة بنت وهب ولداً كالبدر سمته محمداً.

وها هو عبد المطلب منشرح الصدر والفؤاد، وآن لمكة أن تسعد بأفراحها ولياليها والمشهد رائع.

خديجة بنت خويلد جميلة الجميلات، وبنت خويلد من أعظم سادات قريش وأغناهم.

خديجة اليوم تزف إلى عتيقِ بن عابد ، ليلة سرور فيها رقص وغناء، الكل يعيش لحظاته حتى عبد المطلب يشارك قومه ويهنئونه بمولوده الجديد «محمداً».

- خديجة تزف إلى عتيق.

- محمد بن عبد الله يولد.

- الكل فى مكة يلهون.

- معزوفة قدرية إلهية وجدانية تتسامى أحداثها.

الكل يلهو إلاَّ ورقة بن نوفل ابن عم خديجة لا يشارك القوم ويسخرون منه ويقولون له: يا ورقة شاركنا الشراب واللَّهو ودعْكَ مما أنت فيه فآلهة الروم التى تدين بديانتها لن تنفعك أو تصب عليك النعيم مثل آلهتنا الشامخة حول الكعبة.

ويقول لهم ورقة: اسخروا ما شئتم اليوم فغداً نسخر منكم حين يبعث من بينكم نبى آخر الزمان الذى سَيُحَطِّم هذهِ الأصنام ويقضى على الضَّلالات.

وزادت سخرية القوم بورقة الذى ازداد إشفاقًا عليهم وعلى ما هم فيه وانتهت ليلة الفرح وانصرف الناس ودخلت خديجة بنت خويلد أبواب حياة كبيرة الأمل إلاَّ أن قلبها كان يحمل فى طياته خوفًا وإشراقًا لم تعرف مداه وإلى أين يقودها قدرها.

وصدق حِسُّ خديجة فلقد مات عتيق بعد عام ونصف من الزواج تاركاً لها بنتًا ومالاً وثراءً.

وحزنت وظلت رمزًا للوفاء والإخلاص حتى غلبها تصميم والدها على الزواج من سيد من سادات أهلها وهو: «النباشُ بن زُرارة التميمى»، كريم الأصل حسيب نسيب يملأُ الأسماع بكرمه واستقامته. خَيِّر جَوَّاد، وتزوجت وأخلصت المعاشرة وأوفت الحب والطاعة ورزقت هالة وهند.

ولم يدم لخديجة أمنها، فيد القدر اختطفت النباش فعادت خديجة إلى عهدها من الحزن والأسى وزهدت فى الحياة.

فها هى ترعى أسرتها .

وإن كان مال خديجة قد تضاعف أضعافًا مضاعفة لميراثها ثروة عتيق والنباش إلاَّ أنَّهَا زهدت المال وقالت: «هل ينفع المال بديلا عن الأحباب» وحزنت حزنًا ثقيلا ومرضت واعتلت حتى قال لها أبوها خويلد:

ومن يرعى أبناءك اليتامى فيما لو افتقدوك ...؟

وهل حزنك يعيد الموتى من قبورهم ...؟

ارحمى نفسك وأبناءَك وهاهى آمنة بنت وهب بجوارك فقدت الزوج وأخلصت الحزن والوفاءَ وأبقت نفسها لرعاية محمد ابنها.

فلماذا اليأس الذى يقتل النفس ويضيع المال والولد ...؟

هل ترضين لأبنائك اليتم أبًا وأمًا ..؟

وتنبهت خديجة إلى رسالة أعظم وأجل، وأخذت من الحزن تصميماً على أن تكون مثل آمنة الصابرة..

وأدركت بفطرتها أن ما حباها الله به من حب الخَلق وما أغدقه الله عليها من ثراء إنما هو لأمر جلل وشأن عظيم.

ولكنها حسمت أمرها أن تهب نفسها لأبنائها وتجارتها ورفضت كل من طلب منها الزواج مهما عظم شأنه أو مقامه.

وفى ليلة من الليالى نامت خديجة لترى فى منامها عجباً.

رأت سماءً صافية، وشمساً ساطعة، ودنيا كلها إبداع للخالق، وإذا الشمس تنزل من عليائها وتدخل دارها نوراً وضياءً.

ثم تبعث النور إلى ما حولها فى مكة وإلى أبعد منها لتغمر كل الكون وكل الأرض.

وتهب خديجة من نومها حيث تقودها خطواتها المسرعة وأنفاسها اللاهثة إلى بيت ابن عمها ورقة بن نوفل الكاهن والعَراف الذى قال لها بعد أن قصَّت رؤياها.

يا بنة العم: ستتزوجين.

فقالت: وكيف وقد وهَبتُ نفسى لمالى وعيالى. أعد النظر فى تأويل الرؤيا..

فقال: ستتزوجين يا خديجة هذه الشمس. ستتزوجين رجلاً لا ككل الرجال نبى هذه الأمة وسَيِّدهَا الذى سوف يبعث وقد قرب زمانه أعدى نفسك فرؤياك صادقة وتأويلى صدق وحقٌ.

وانصرفت بين التصديق والاستغراب وشغلتها أمور تجارتها عن أمور الرؤيا لتحكم العناية الإلهية التدبير والتقدير.

وفى لحظة من لحظات البحث فى شئون التجارة وإعداد العُدة لقافلة من قوافل التجارة الكبيرة لخديجة ذهب أبو طالب بن عبد المطلب إلى خديجة للتحدث فى أمور التجارة وعرض عليها إن شاءَت الاستعانة بابن أخيه «محمد» الذى بلغ من العُمر خمسة وعشرين عامًا ولا مال له غير ما يأتيه من رعى أغنام أهل مكة.

ويقول : إن محمداً إن كان فقيرا فإن أباه عبد الله بن عبد المطلب سيد مكة وما جئت إلا لكى أجد له عملاً عندك أكثر ربحًا من رعى الغنم يستعين به على الزواج ثم إن أمانته تملأ الأسماع.

وطمأنها أبو طالب عن قدرة «محمد» على تدبير الأمور ومعرفة طريق التجارة إلى الشام ، فقد صاحب عمه أبا طالب وهو فى سن العاشرة فى رحلة إلى الشام.

سمعت خديجة وشرد ذهنها وتذكرت يوم ميلاد محمد وهلاك أبرهة وجيشه ويوم نجاة أبيه عبد الله من الذبح، ويوم حفر عبد المطلب لزمزم.

وتذكرت يُتم محمد وصبر آمنة، ونقاء محمد الملقَّب بالأمين.

وقالت : يا أبا طالب لو طلبت هذا للبعيد لأجبْنَا . فما ظنُّك بالحبيب القريب؟

التقى محمد بخديجة فى دارها الفسيحة وكان فى رؤياه لها شىء جديد ورؤياها له ما ينبئُ بشىءٍ : «امرأة جميلة واسعة العينين، طويلة الشعر، نافذة النظرات ، بيضاء ترتدى ثياباً حريرية ، تشد الناظر لعظمتها وتأسر الرائى بهيبتها» ، وهو: «فتى ذى هيبة وحضور وقوة نفس».

وما خفى من انفعالات خديجة كان أعظم، لقد جاءتها رؤى وتوافدت عليها خواطر وحامت حولها التنبؤات.

تذكرت القريب والبعيد، تذكرت ما قالته «بنت نوفل» العرافَّة حينما أحبت عبد الله وحاولت الزواج منه، ولما قال لها : لقد خطب أبى لى «آمنة بنت وهب».

قالت : لقد فازت بالأنوار.

وتذكرت أنوار الشمس المشرقة التى رأتها فى حلمها وفسرها لها ورقة بن نوفل بأنها سوف تتزوج نبى هذه الأمة.

ونظرت إلى وجه محمد فرأت أنواراً لم ترها فى وجه بشر، ورأت علامات لم تر مثلها فى قسمات مخلوق.

ماذا تفعلين يا خديجة ...؟

ماذا تقولين ...؟

هل تحلمين؟ هل مسّك شىءٌ ..؟

ولكنها تمالكت ورأت فى المستقبل شيئا وقالت: حبا وكرامه فى أن تتولّى شئون القافلة، افعل ما شئت يا محمد.

وذهب محمد بالقافلة ورافقه خادمها ميسرة، ولازمه أينما حل وأينما رحل ، وأَتَتْ تباشير العودة ومكة كلها فى شوق للأحباب والرِّجال والغائبين والأموال والتجارة والهدايا.

وإذ بالمنادى يُعلن قُدوم القافلة.

وتصعد خديجة ومعها جواريها إلى أعلى بيتها تستطلع القادمين والقافلة تكبر فى الاقتراب، وها هى قافلة خديجة عن بعد إلاَّ أن خديجة رأَتْ عَجَبا كل القافلة فى وهج الشمس المحرقة إلا أن هناك شيئاً يستحق الانتباه.

هناك سحابة فوق محمد تَخُصُّهُ وحدهُ بِظِلِّهَا لا تشرك معه أحد حتى ميسرة أقرب الأقربين فى ملاصقته لا يحظى بظلها.

وازداد يقين خديجة فيما تحسه نحو محمد الأمين صاحب الأنوار واستقبلت خديجة محمدا وميسرة والقافلة إلا أن دخول محمد إلى بيتها أكدَّ لها أنَّه هُوَ الشمس المشرقة التى رأتها فى منامها.

فسُرت وأَشْرق فى قلبها حب هذه الشمس ، وعاد محمد إلى بيته يستقبل المهنئين له بالعودة.

وحينما دعت خديجة ميسرة ليَقُصَّ لها ما رآه قال: أنجزنا تجارتنا بيعا وشراءً فى أقل وقت حتى إن التجار جميعا قالوا فى تعجب :« سلع غير سلعنا؟» « أم اتفاق قبل أن تصل؟»، الناس يتهافتون علينا للشراء فبعنا بأعلى الأسعار والتجار يتهافتون علينا للبيع فاشترينا بأقل الأسعار.

لقد كان شأن محمد عجيبا..

- كان خروجنا من مكة والحر يقذف بلَهِيبه حولنا فاحتمينا بالعمائم إلاَّ محمدا أظَلته سحابة من الصباح إلى المساء.

- لقد كان صامتا بتأمل إبْدَاع الكون وعَظَمة الوجُود لم يله معنا ولم يشاركنا اللعب والسمر.

- نزلت «ببُصرى» فجلس محمد تحت شجرة لا تختلف عن باقى الشجر وبجوارها صومعة راهب وإذا بى أرى الرَّاهب ينظر من صومعته ويقترب منى ويقول : من هذا الرجل ...؟

فأقول له: إنه رجلٌ من قريش.

فيقول : أبُعِثَ هذا الرجل ..؟

فسألته : ماذا تريد ...؟

إن لم يكن هذا الرجل بُعث فسوف يُبعث برسالة إلى الناس، فما جلس تحت هذه الشجرة إلاَّ نَبى .

وذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ابن عمها وقصَّت عليه ما سمعت فقال: هذا بشر ليس ككل البشر.

وقد يكون نبى هذا الزمان.

وصممت خديجة ألاَّ يفوتها شرف النبوة اقتراباً وجهاداً ومشاركة فى السراء والضَّرَّاءِ، فَفطْرتها قد آمنت، وملكاتها أسلمت وأصبح شغلها الشَّاغل النبى

والنبوة ومحمد وما يُنْتَظر له ، خديجة قد سبقت زمانها بالعلم بما سوف يكون وعرفت من هو صاحب الرسالة ..؟

وتميل إليه وتتلهف إلى القرب منه تيمُّنًا وتبرُّكًا وائتناسا، فكيف ذلك ...؟

دعت خديجة إليها من أمنت فيها حفاظا على السِّر، فقد كانت امرأة ذكية أمينة يقظة.

وفاتحتها خديجة بما يدور فى خواطرها وطلبت منها أن تُفَاتح محمدا فى الزواج بخديجة.

ومشيئة الله أرادت أن يتم هذا الزواج وتزوجت خديجة من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

لك الله يا خديجة ، وما أعظمك مختارة. وما أعظمك وأنت تحتضنين بذور الرسالة قبل أن تولد تُعدِّين وتَستُعدِّين. تصدُّقين وتُصَادِقين الأمين فى كل همسة وفى كل خلجة.

ما أعظمك وأنت تستشرفين الهداية قبل بزوغ الأنوار .

وما أخلدك وأنت تحلمين بهداية البشر وسيادة فطرة الله خالدة مخلدة فى ضمير العالمين.

وأنت ما أنت لست ككل امرأة.

إن اختيار الله لك واصطفاءَه إيَّاك زوجا وحاميا وحافظا لمنابت النبوة ليس لأنك امرأة ككل النساء ولكن لأنك عظيمة عظم الخُلود الكامن فى ملكاتك وسكناتك، ولأن قلبك لا ينبض إيقاعا ولكنه ينبض تسبيحا . ولأن عينك لا ترى أشياءً ولكنها ترى إشراقا، ولأن فمِك لا ينطق لهوا ولكنه ينطق تكبيرا وحمدا.

ما أعظمك وأنت تضمين المصطفى زوجا وصفيا وخليلا وحبيبا ونبيا ورسولا وأنت تعلمين أن الأنبياء هم أشقى الخلق واخترت الشقاءَ يقينا والجهاد وسيلة إلى غاية لا يدركها إلاَّ من هم فوق العالمين علمًا ويقينًا.

امرأة ليست ككل النساء صادقت مجد الإنسانية وصنعت مهد النور، وهيأت لرسالة سيِّد البشر الأمن والطمأنينة.

وجدته يميل ويهتم بالتفكير فى إبداع الله وفى قدرة الله وجلاله وينشغل قلبه بالملأ الأعلى، فهيأت له المناخ الذى يريحه ويعينه على ما فى قلبه وخواطره.

وجدته يهتم بخلق الله وضعفائه والمساكين والمحرومين، فيفتح لهم قلبه، ولايرد لهم طلبًا مدافعًا عن المظلوم ضد جبروت الطُّغاة، فأعانته بالمال والتأييد.

رأته يميل للعزلة والانقطاع عن الناس فهيأت له الهدوء والسكينة.

أربعة عشر عامًا وخديجة وبيتها فى هدوءٍ وأمن دار لا يتردد فيها لغوٌ ولا قولٌ نافر لا يسمع فيها غير التحية والسلام. وأصوات ترتفع إلى السماءِ تدعو لأهل الدار بالعز ودوام الخير والنعمة.

رأته يجاهد نفسه ويحاسبها وقد ازداد تألق أنوار النبوة فى قسماته وإشراقة الهدى فى همساته، فأشرقت فى جوانحها إشراقات الحب، والعطف الذى غمرته به وأغدقته عليه.

وقد كان رمضان من كل عام شهر الانقطاع والزُّهد فمحمد يعد زاده القليل من التمر والماء والملح والزيت والشعير ويرتقى جبل حراء وينقطع فيه شهر رمضان كاملاً.

يحيا حياة الزهد والبُعد عن الناس ومساوئهم وعن كل ما يصرف الإنسان عن الله وعن التفكير فى عظمته وجلاله.

ويعود محمد إلى بيته ليجد من خديجة القلب الحنون والأمن الذى يعيد له القوة والعافية.

ولما اقترب محمد من الأربعين رأت خديجة علامات النبوة وملامح البعثة تتزايد وتتألق، فاستبشرت الخير واستشرفت الأمل.

وفى شهر رمضان الذى كان فيه موعد السماء مع الأرض ذهب محمد إلى جبل حراءْ كعادته، وحيث كان الليَّل والسكون والظلمة وأَصوات السباع، ومكة مختفية فى ظلامها إلا نورٌ ضئيل هنا وهناك من بعض المصابيح.

ومحمد فى الغار على قمة جبل حراء ينظر إلى السماء والصفاءِ والكون ويتفكر فى خَلْقِ الرَّحْمن.

ومحمد يُطيل النظر والنفس مشرقة؛ فإذا بجسم لطيف ليس كمثل البشر ارتعد منه واهتز كيانه مَلَكَ سمعه واقترب منه وهزهُ وناداه.

-اقرأ يا محمد .

فقال والخوف يعتصره: ما أَنا بقارئ.

فأعاد فى قوة: اقرأ يا محمد.

ومحمد فى رعدته الشديدة وخوفه الكبير قال: وماذا أَقرأ؟

فقال فى صوتٍ يذوب حلاوة وينساب طلاوة :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

«سورة العلق من ١-٥»

ولَمَّا قرأَ محمد ما قال انصرف عنه إلاَّ أَن خوف محمد وما أَصابه جعله ينساب من فوق الجبل بعد أَن استعاد قوته مميما شطر البيت فإذا بخديجة تستقبله وتُزَمِّلُه وتضمه وتصنْع من قلبها وسادة راحة وتفترش أَضلعها مُتَّكأ

حنان فيستريح وينام وتذهب خديجة إلى ورقة بن نوفل لتستطلع الأمر فإذا ورقة يقول، قدوس ! قدوس!

- ظهر نبى هذا الزمان.

- جاءَه جبريل كما جاءَ للأنبياءِ من قبل.

ولم يكمل حتى طارت خديجة عائدة إلى محمد حيث ينام فراقبته لتجده يرتجف ويهتز ولم تستطع إلاَّ أن تصبر حتى يستيقظ فإذا به يفتح عينيه ليقول : انقضى عهد الراحة يا خديجة. ويقول فى تأثر: نزل علىَّ فى هذه الساعة :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾

لقد تضمنت المعزوفة الوجدانية لمقدمات الرسالة الإسلامية قربانا أصاب عبد الله والرسول ﴿ﷺ﴾ذلك الإنسان الذى أحبه القريب والبعيد وتناقلت العرب يومها قَدَرَه وكيف أصابت القرعة فى كل مرة عبد الله ليكون الذبح.

وكيف افْتُدِى بمائة من الأبل لِتُطْعم كل قريش حتى سباعها وجوارحها.

فما أعظم أحداث عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول وما أعظم أن يطل مذنب هالى عام ٥٤٥ قمرية ب:م على مولده كما أطل على إسكان جده اسماعيل مكة ،وكما شاهد إلقاء جده الأعلى إبراهيم فى النار وما أجمل أن يزف الناجى من الذبح على أكرم فتاة فى مكة آمنة بنت وهب.

وما أجمل حوار العذارى الراغبات فى الزواج من عبد الله حوار العفة والكرامة من صاحب الأنوار وما أجمل ما رأته آمنة من نور فى بطنها يخرج ليملأ شعاب مكة والدنيا كلها.

ثم ما أجمل ما عزفت به المعزوفة الوجدانية التى حطمت جيش أبرهة القادم لهدم البيت الحرام فى عام ميلاد محمد ﷺ الذى مات أبوه قبل أن يراه ثم ماتت أمه فى صباه.

فأصبح اليتم رمزًا يُجسِّد مَنْبِت النبوة وجذورها ممثلة فى هذا الطفل الذى يربيه ربه ويكرِّمه تكريما إلهيا ويضعه فى رعاية جده عبد المطلب ثم عمه أبى طالب حتى تضمه أم المؤمنين خديجة زوجا تفانت فى الحدب عليه.

فما أعظم تكامل المنظومة الوجدانية حينما تخطبه خديجة لنفسها! فهذه هى ثقة الحرائر من النساء الخالدات، وما أعظم خديجة حينما تعرف وترقب وترعى هذا النور التى أحست به دارها!.

وما أعظم وجدان خديجة وهى تستقبل محمداً عندما نزل عليه الوحى لأول مرة وجاءت الآيات الخالدة مكونة ركن البناء الإسلامى ممثلا فى تسعة عشر حرفاً هى (بسم الله الرحمن الرحيم) وتسعة عشر آية هى آيات سورة العلق وستة وسبعين حرفا هى عدد حروف الكلمات الأولى التى نزلت على الرسول الأمين

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

إنها معزوفة وجدانية وإعجاز رقمى وحسابى فى القرآن لم تُعْرف معطياته إلا بعد أربعة عشر قرنا من الرسالة.

ما أعظمك وأنت تُزَمِّلين محمدا!

إن هذه المعزوفة الوجدانية قبل البعثة ضمت اشخاصاً يخلدهم التاريخ أولهم جد النبى ﷺ عبد المطلب ثم عمه أبو طالب ثم ورقة بن نوفل.

وبنت نوفل، وفاطمة بنت بر وأبرهة الأشرم وعبد الله والد الرسول وعرافة خيبر وأم المؤمنين خديجة وأم الرسول آمنة بنت وهب والراهب بحيرى وكثيرون هم أبطال هذه المعزوفة الوجدانية الذين لا ينساهم التاريخ.

الباب الثانى

الغـزوات الـوجـدانيـة
للرســالـة الإســلامــيـة

الغزوة الإسلامية الأولى لوجدان بنى هاشم :

مع بداية الأمر الإلهى إلى محمد ﷺ بالدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ كل ما هو مخالف للفطرة والدين الحق الذى ارتضاه الخالق نزلت هذه الآيات الكريمة من سورة المدثر .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾

«الآيات ١-٧»

وكانت هذه الآيات تحديدا لأدوات الدعوة لسلام البشرية . وتأكيداً على أن متطلّبات السلام تقوم على الطهر ، وأنه إذا كانت طهارة الظواهر واجبة ، فإن طهارة البواطن أَولىَ ، وأن أقوى زاد للراغب فى السلام ، والداعى له هو الصبر .

ومثلما يكون الصبر أداةً من أدوات نشر الدعوة ، فمن الضرورى أن يكون الإقناع ضرورة من ضروراتها .

فبالإقناع جاءَت الدعوة الإسلامية ، وبالاختيار المطلق ، وليس بالإجبار ، وهاهو ذا نبينا ﷺ يُصَلّى كما علمه ربه ، وتصلى معه خديجة بنت خويلد، وكان يقيمُ معهما غير بناتهما علىُّ بنُ أبى طالب ، وكان صبيًا لم يبلغ الحُلُم ولكن ما ظننا بغلام نشأ وترعرع فى بيت النبوة .

وبينما هما يصليان دخل عليهما علىٌّ فرآهما يسجدان ، ويركعان ، ويتلوان كلامًا عَجَبا .فيقف الصبى دهشًا، ولمَّا أتم الرسول ﷺ وخديجةُ الصلاة ، سأل علىٌّ ابن عمه محمداً قائلا : لمن تسجدان ... ؟

أجاب الرسول ﷺ : إنما نسجد لله الذى بعثنى بالحق نبيًا ، وأمرنى أن أدعو الناس إليه .. وقرأ الرسول العظيم ما تيسر من القرآن مما أوحاه الله يومئذٍ إليه.

فكان لوقع الآيات عَلى علىٍّ وقعُ السحر، واستمهل على محمداً حتى يُشاور أباه أبا طالب .

وقضى علىٌّ بنُ أبى طالب ليلهُ مُتَحَاوِرًا مع ذاته ، مُقَلِّبًا فى فطرته ، متَبصرًا بوجدانه ، متفاعلاً مع ما شاهد وسمع .

ولم يُشاور أباه ، حتى إذا جاءَ الصبح قدم إلى النبى العظيم ﴿ﷺ﴾ ونور اليقين يعلو أساريره قائلا :

أَشهد أن لا إله إلاَّ الله وأنَّك رَسُولُ الله .

وأَضاف : إننى لست فى حاجة إلى مشاورة أَبى طالب ، فلقد خلقنى الله من غير أن يشاورَه ، فما حاجتى أنا إلى مشاورة لأعبد الله الذى خلقنى .

هذه أول غزوة لعظمة القرآن فى وجدان صبى فَتِىٍّ ، جاءَت عن اقتناع بسموٍّ ما رأى من مشاهدَ جماليةٍ للصلاة ركوع . وسجودٍ لله .

وَجَاءَت عَنْ إعجاز ما سمع من سمو بيان اللفظ القرآنى مدلولاً ومعْنى .

أدوات الإقناع الوجدانى :

ولقد كان الرسول ﴿ﷺ﴾ أسوة حسنة ، فكان بارًا ، ورحيمًا ، متواضعًا ، عَذب الحديث ، مُنْصفاً ، عادلاً ينظر إلى الضعيف واليتيم والبائس والمسكين نظرة الأبوة والشفقة والرحمة والمودة .

كانت هذه الأُسوة الحسنة شعلةً تُنير دروب الدعوة بالإشراق والنور، وكانت توقظ فى الفطرة كوامن الارتباط المقدس بين الروح المؤمنة وخالقها الأعظم، وكانت تملأ النفوس المؤمنة بفيضٍ من الصبر على أذَى قريش ، وتغمرها قوة فوق قوة .

مصاعب الإقناع الوجدانى للأهل والأقارب :

أمر الله رسوله أن يُظْهر الدعوة الإسلامية ، وأن يُخرجها من مرحلة السِّر إلى العلَن وذلك فى قوله (تعالى) :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾

«سوره الشعراء، الايتان ٢١٤-٢١٥»

﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾

«سورة الحجر، الآية ٨٩»

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

«سورة الحجر، الآية ٩٤»

هنا دعا محمد ﴿ﷺ﴾ عشيرته إلى طعام فى بيته ، وحاول أن يحدِّثهم داعيا إياهم إلى الله، لكنّ عمه أبا لهب قاطع حديثه، ودعا القوم إلى الانصراف.

لكن محمداً لم ييأس ، ودعا عشيرته مرةً أخرى فلما أكلوا قال لهم : ما أعلم إنساناً فى العرب جاءَ قومه بأفضل مما جئتكم به .

قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، ولقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ،فأيُّكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟

فأعرضوا عنه ... وتهامسوا .... وتغامزوا واستهزءوا بقوله

ولكن ، قبل أن يهمُّوا بالانصراف نهض علىُّ بنُ أبى طالب الصبى الذى لم يبلغ الحُلمَ قائلاً .

أنا يا رسول الله ... عونك...

أنا حربٌ على من حاربت ..

هنا تعالت قهقهات المكابرين وسخريتُهم وهم ينقلون أبصارهم استخفافا بما قال الصبى ، ثم تتحول أبْصَارهم ناحية أبى طالب وكأنهم يقولون : انظروا إلى «خلف الحبايب» ، « وكلام الصغار» . وانصرف الجميع مستهزئين، عدا أبى طالب الذى تباطأ فى الانصراف ، وألقى نظرة عطف إلى ابن أخيه محمد طيبت فؤاده وخاطره، ونظر إلى ابنه عليّ نظرة أمل وأمانِىّ فى أن تُغْدق عليهما رحمة السماءِ البركة والإكرام .

بعد هذه المناظر الروحية بين محمد وبنى هاشم تزايدت حدة الكراهية

وتلبدَت غُيُوم العَدَاء ، ودارت رحى الحرب النفسية ، بين الدعوة الإسلامة والمتألهين من بنى هاشم ، والمكابرين فى جاهليتهم ، والمعادين لأى تغيير يمس سلطانهم ، وجبروتهم ، وسطوتهم ، وهم يملكون السيادة والجاد والسلطان، وصاحبُ الدعوة الجديدة لا يملك شيئاً .. ولم ينضم إلى دعوته إلاَّ الضعفاء والبائسون والمحرمون وقلَّة من تجار مكة وبعض أشرافها .

ولقد كان الرسول الكريم يزن هذه الأمور . ويقدر موقفه تقديراً صائبًا؛ لهذا اتخذ المبادرة دائماً ، وتعامل مع أصحاب الفطرة الصادقة ، واتخذ المبادأة بالإقناع ، والدعوة إلى تطهير النفس وتنزيهها . والحرص على الفوز بمغفرة الله ورضوانه .

وهكذا بدأت إشراقات الدعوة تغزو ملكات المتأملين ، وبدأت إخفاقات الجاهلية تنجلى عن صدور الكثيرين ، وبرغم أن جبروت التحدى كان شامخاً مَهِيبًا ، عاتيًا، كان فى مقابلهِ سلاحُ الدعوة المحمدية يسير على مبدأ إلهىٍّ يقول :

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

«سورة النحل من الآية ١٢٥»

الغزوة الإسلامية الثانية لوجدان أهل مكة :

كان من الطبيعى أن تنتقل الدعوة من مرحلة العشيرة الأقربين إلى مرحلة دعوة أهل مكة جميعًا ، واستلزم ذلك الإعلام عن طبيعة الدعوة ومقدماتها .

هنا صعدَ محمد ﴿ﷺ﴾ جبل الصفا ونادى :

يا معشر قريش ... يا معشر قريش .

وتسامع الناس النداء ، وقالوا : محمدٌ على الصفَا يهتف وينادى .. فما باله .. وما الخبر .. ؟

أقبلوا عليه وسألوه ...

قال : أرأيتم لو أخبرتُكم أن خيلا بسَفْحِ هذا الجبل توشك أن تعصِف بكم .. أكنتم تصدقونى ... ؟

قالوا : نعم .. أنت عندنا غيرُ متهَّم .. وما جَرَّبنا عليك كذبًا .

قال : فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد ... يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، يا بنى تَميم ، يا بنى مَخْزُوم ، يا بنى أسد ... إن الله أمرنى أن أنذركم .. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا .. لاَ إله إلاَّ الله .

هنا صاح أبو لهب قائلاً : تبًا لك يا محمد .. تبًا لك ألهذا جمعتنا ... ؟ عندئذ نزل الوحى فى ردٍّ إلهى عادل بقوله (تعالى) :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

«سورة المسد ، الآية ١ ـ ٥»

إعجاز وإقناع باللفظ ، والمعنى ، والمدلول المناسب للغة ذلك العصر ، والذى كانت فيه الكلمة هى الفاصلةُ ، وهى المحدِّدة للغالب والمغلوب .

وهكذا خرج محمد ﷺ بسحر بيانه معلنًا عن أمر جديد يشغل البال والفكر ، وأصبح هذا الأمر حديث الناس وقلوبِهم وأفئدتِهم . ذلك لأنه يدعو إلى الحب ، والمودة، والعطف ، والمرحمة ، والتسامح ، وعبادة الله وحده فلا عبادة للأصنام ، ولا للأوثان ، ولاَ عبادةَ لنارِ المجوسِ أو شمسِ المصريين ، ولا عبادةَ للنجوم ، أو الملائكة ، أو الجان ، وغيرها .

وهذا الأمر الجديد يؤكد أن الإنسان لا حجاب بينه وبين ربه ، وأن الله لاَ إلهَ إلاَّ هُو، وأمامه وحدهُ يُسأل الإنسانُ عمَّا قدم من خير أو شرٍّ، وأن أعمال العبد هى وحدها الشفيعة له ، وأن الضمير هو ميزان الأعمال والأفعال وأن الحرية التى أعطاها الله للإنسان فى هذا الوجود فى إطار من «افعل ولاتفعل» وفى إطارِ من حرية الاختيار، إلاَّ أن هناك يومَ فَصْلٍ، تُجزَى فيه كل نفس بما كسبت .

فما أعظم هذه الحرية المطلقة التى لا سلطان فيهاعلى إرادة الإنسان غير ذاته .

وهكذا تأججت نار العداوة بين دعوة الحرية وبين دعوة العبودية التى يتزعمها كلٌّ من أبى لهب وأبى سفيان وأشراف قريش ، وذلك لأن دعوة محمد تُشَكِّل خطرا على مكانتهم .

ولهذا أُعلِنت الحرب من جانبهم بأسلحة متعددة منها :

التكذيب :

ففى بادئ الأمر حاربوه بالتكذيب فى رسالته ، والحط من شأنه .

الهجـــاء :

وقام شعراؤهم بهجائه ، والإساءَة إليه .

التشكيك فى النبـــوة :

فلقد سألوا النبى ﴿ﷺ﴾ أن يأتى بمعجزات كالأنبياء السابقين :

فلماذا لا يُحيلُ الصفَا والمرْوَةَ ذهبًا .. ؟

ولماذَا لا يُفَجِّر عيناً أعْذب من زمزم ... ؟

لماذَا لا يُسَيِّر الجبال بعيداً عن مكة حتى لا تكون أسيرةً لهذه الجبال ... ؟

لماذَا لا يُوحَى إليه بأسعار السلع حتى يُضَارِبُوا على المستقبل وتزدادَ ثرواتهم ... ؟

وما كان رد محمد ﴿ﷺ﴾ - بأكثر من إشارات لأن يستجيبوا لوحى النفس الفاضلة ، والفطرة السَّوِيَّة . وفى أن مُعجزة المعجزات هى فى إعجاز القرآن وآياته ، والحقُّ الذى هو من عند الله ، وليس من عند الآلهة المزعومة .. كاللاَّت.. والعُزَّى المصنوعةِ من الخشب والأحجار ، ولا تملك لنفسها ضراً ولا نَفْعًا ، وعلى الرغم من ذلك يعبدونها ، ولا يطلبون منها معجزات أو خوارقَ .

هنا كبُرَ على الكفار أن يعيب محمد ﴿ﷺ﴾ آلهتهم ، وأن يصفها بأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفْعا ، فثارتْ ثائرة كبراء مكة ، وأصحاب السيادة فيها والمتألهين الذين يرتبط سلطانهم بمجد هذه الآلهة وقدسيَّتها .

وجاءَت مُباغتة ومباداَة محمد ﴿ﷺ﴾ بما يعيب هذه الآلهة كوقع الصاعقة على سادة مكة ، وتساءلوا :

ماذا لو استطاع محمد أن يؤلب أهل مكة على هذه الآلهة .. ؟

ماذا لو استطاع أن يَصْرفهم عن عبادتها ... ؟

ماذا يكون عليه حال مكة لو لم تكنْ موطنَ حِل وتَرحَال للتجارة ... ؟

وماذا يكون عليه مقامها الدينى ... ؟

معركة الجدل تدور رحاها ... ولم يكن أمام سادة قريش سوى محاولة تحجيم الدعوة ، وحرمان صاحب الرسالة من كل حماية أو دعم معنوى ، أو مساندة يرتكز عليها ، والتهديد بإهلاكه والقضاء عليه .

ولقد حانت لحظة انتصار قريش فى هذا الاتجاه ، وها هو ذا عمه أبو طالب يأتيه متوسلًا ، فلقد دافع عنه بقدر استطاعته. ولكنه لا يستطيع دفع هؤلاء عنه قائلا له : ابق علىَّ وعلَى نفسك ولا تحمِّلْنى من الأمر مالا أُطيق .

فكيف تكون إدارة معركة الحرب النفسية ... ؟

وكيف يكون تقدير الموقف فى مرحلة تداعى قوى الدعم والمساندة ... ؟

وكيف يكون القرار ؟

إن الحق أحق أن يُتَّبع ، وإن الإيمان بالحق عُدَّة ، وخيرُ للإنسان أن يموت مؤمناً مدافعًا عن الحق من أن يتردد ، أو يتخاذل ، أو يخشى فى الحق لومة لائم ..

وها هو ذا محمد ﷺ يؤدّى رسالته ويدعو إلى ما أمَرَهُ ربه ، ويبدو له أن عمه قد ضعف عن نصرته . وأنه خاذلُه . هو ورسالته، والمؤمنون معه ما يزالون ضعافًا لا يقْوون على حرب ، ولا يستطيعون مقاومة قريش ذات السلطان والسطوة هذا من جانب .

وعلى الجانب الآخر : هذه عقيدةُ الإسلام قوية ، وبرغم قلة المؤمنين إلا أن عقيدة نضالِهم راسخة ، وهم على الحق ، والله معه وناصرُه ، والخير له أن يموت مؤمنًا بالحق الذى أُوحى إليه .

هنا أعلن النبى قراره أمام عمه قائلاً:

« يا عم ، والله لو وضعوا الشمسَ فى يمينى ، والقمرَ فى يسارى ، على أن أتركَ هذا الأمرَ حتىٰ يظهرهَ الله، أو أهلكَ فيه ما تركتُه » .

وهكذا تتجلى عظمة صاحب هذا القرار فى إرادته السامية فوق الحياة وكلُ ما فى الحياة ، وفى تعظيمه للحق وإجلاله له .

ومنذ هذا اليوم ، وبرغم عدم تخلى عمه أبى طالب عنه وأيضاً حماية بنى هاشم له ، إلاَّ أن دائرة الصِّراع قد اتسعت ، ووسائل الحرب قد خرجت من دائرة الحرب النفسية ، ودائرة التهديد ، إلى دائرةٍ جديدة تتمثل فى :

أولاً : حرب القهر والإذلال والمقاطعة :

لقد كانت معادلة الصِّراع فى هذه الفترة متمثلةً فى جانبين:

❖ جانب ضال متألِّه مكابر يتفنن فى الإذلال ، والإيذاءِ ، والتنكيل بالمسلمين وينهج كل سبيل فى التعذيب حتى الموت والضرب المبرح ، وإلقاء الأذى ، والسبِّ والشتمِ بأقبحِ القول وأنكره .

❖ وجانب مؤمن حريص على دينه مبتهج بالأذى يُضَحىٰ فى سبيل العقيدة ، صابرٍ محتسب ، لا يبتغى من وراءِ ذلك مالاً ولا جاهاً ولا حُكْمًا ، وإنما كان نشر الحق ودعم الإيمان هو الغاية .

وكان الرسول ﴿ﷺ﴾ يطلب الهُدَى للذين يُصيبونه بالأذى .

مبدأ مقابلة السيئة بالحسنة وأثره فى الدعوة :

إن السلوك السامىَ للداعى ﴿ﷺ﴾ وقدوته لهما أثرٌ كبيرٌ فى نشر الدعوة وبخاصةٍ تلك الدعوة الإسلامية العامرة بالمثُل العليا ، والقيم السماوية التى ارتضاها الخالق لخلقه .

وها هو ذا الرسول الأعظم ﴿ﷺ﴾ يسمو ويَعْظُم فى تعامله حتى مع من يسىءُ إليه، فيومًا مرَّ أبو جهل بمحمد فآذاه ، وسَبَّه .

فما كان من المصطفى إلاَّ الصمتُ .. فلم يردَ ..

ولم يتكلم، ولم يكن سلوكُه ضعفا أو خوفًا ، وإنما الرحمة بذى القربى ، والصمت أبلغ من الكلام فى هذه المواقف عند أهل الرأى والحكمة ، وانصرف أبو جهل وهو يُحِسُّ بإهانته لمحمد دون مبرر .

ثمرة السلوك السامى :

كان حمزةُ وهو عم الرسول الكريم ﴿ﷺ﴾ فى رحلة صيد فى هذا الوقت ، وكان يُحبُّ محمداً حبًا كبيراً على الرغم من أنه لم يُسْلم ، ولم يُؤْمن بهذا الدين الجديد الذى يدعو إليه ابنُ أخيه .

وكان من عادة حمزة كلما عادَ من رحلة صيد أن يطوف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره ، فلمَّا عاد وقبل أن يطوف أتاد مَنْ قال له : إن أبا جهل سَبَّ محمداً وعابَه ، وأسمعه ما يكره ، وإن ابن أخيك محمداً لم يرد .

فلم يَطُفْ حمزةُ بالكعبة كما اعتاد فلقد امتلأ غضباً وثورة على أبى جهل ، وازداد حبا وعطفًا على محمد الذى لم يرد ، فلم يُسلِّمْ حمزة على أحد كما تعوَّد ، واتجه مندفعًا إلى حيث أبو جهل . ورفع قوسه وضربه به وشجَّه شَجَّةً كبيرة ، وكادت الفتنة تقع بين من أرادوا أن ينصروا أبا جهلْ وبين من تبعوا حمزة وهو سائر إلى دار أبى جهل .

إلاَّ أن أبا جهل حسَم الأمر، وخاف من استفحال الفتنة وقال :

أنا سبَبْتُ محمداً سبًا قبيحًا ، وأنتم تعلمون أن حمزة يُحبُّ محمداً ، وما فعله حمزة من أثر هذا الحب الذى لم يُمكِّنه من أن يتمالك نفسه ، فدعوه فإن ما فعله حقُّهُ وردٌّ على فعلتى. وهدأت النفوس . هنا وعلى مسْمع من

الجميع قال حمزة : « أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسولُ الله » ، وتوجه من فوره بعد أن أعلن إسلامه أمام أشدُ خصوم محمد ، وأعدى أعدائه ، توجه إلى حيث ابنُ أخيه ، وعاهده على نصرته ، والتضحية فى سبيل الله حتى النهاية .

الترغيب فى الجاه والسلطان :

لاحت للمتفلسفين فكرةُ مراودةِ هوى النفس ، والترغيبِ فى الجاه والسلطان فتشاوروا فى أمر محمد خاصة بعد إسلام حمزة الذى عبَّر عن عمق تأثير الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فى مواجهة الغرور ، والتكبر والسب ، والاعتداء .

واتفقوا على مواجهة انتشار هذه الدعوة بإغراء صاحبها بالسيادة والصولجان، ولإرضاء مطامعه ، وكان هذا خيالهم .

وهم الذين يجهلون عظمة الدعوة الإسلامية ، وعمق رسوخها فى عقول وأفئدة المؤمنين بها ، ولهذا اختار الكفار «عُتبة بن ربيعة» وكان من سادات العرب ليكلم محمداً ، ويَعرِضَ عليه أموراً مغرية . فما هى ...؟

لقد ذهب عُتبة إلى محمد ، وقال له :

يا بن أخى إنك منَّا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيتَ قومَك بأمر عظيم ، فرَّقت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرِضْ عليك أموراً لعلَّك تقبلُ بعضها :

إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنَا مالاً، وإن كنت تريد مُلكًا ملَّكناك علينا ، وإن كنت تريد تشريفًا سودناك علينا وإن كان الذى يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

ولمَّا انتهى عتبة من قوله ، قال محمد ﷺ مُرتَّلاً فى ردٍّ بليغ .

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ
ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ
أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾
فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ۞

«سورة فصلت- الآيات من: ١-١٢»

إن عتبة أحسَّ أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من عند رب العالمين وليس لمخلوق مهما أُوتى من فصاحة أن يأتى بسورة من مثله ، وأن محمداً لم يَختَلقْهُ .

وأن ما فيه حقٌ وصدق ، وهدًى ورحمة، وما أُنزل إلا لهداية البشر وتوفيقهم.

ولقد أحس عتبةُ أن هذا القرآن يُخاطبُ القلب والعقل ويستَثْير العاطفة والفكر ، ويوقظ الانفعالاتِ النفسيةَ مع إيقاظٍ لطيف للقُوَى الذهنية .

ولقد مَسَّه هذا الإيقاظ اللطيف فأنعش فيه عاطفة الحبِّ الإلهى ، ورطَّب جفاف تفكيره العقلى بقطرات من المشاعر الحية ، فحلت برداً وسلاماً على مكابرته فاستشعر فى قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال .

ولقد وعى عُتبْةُ أيضاً أن هذا القرآن يدعو إلى وحدةِ الأفكار والمشاعر السامية وإلى ربط قلوب الناس ربطاً رقيقاً ببديع السموات والأرض .

ولقد رأى عُتْبَةُ أمامه رجلاً لا مطمع له فى مال ولا فى شرف ولا هو بالمريض وإنما يُدلى بالحق والدعوة إلى الخير والدفع بالتى هى أحسن والإعجاز فى العبارة .

وها هو ذا عتبة ينصرف من عند الرسول العظيم ﴿ﷺ﴾ مأخوذاً بجمال ما رأى وسمع ، مأخوذاً بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه فهو رجل يدعو إلى دعوة سامية لم تَعرِفْ لها البشرية مثيلاً هى الدعوة الإسلامية بما تتميز به من جوهرها الروحى السامى .

ولما عاد عتبة إلى قريش وبدا عليه التأثرُ بجمال ما رأى وسمع خرج داعيًا كفار قريش إلى أن يتْركوا محمداً للعرب فإن انتصروا عليه انتهى أمره ، وإن تغلب عليهم كان لهم الفخارُ لأنه منهم وبهم .

ولكن الكفار لم يقبلوا رأى عُتبة وازدادوا عداوة ، وحقداً ، وكراهية لمحمد وصحابته ، وزادهم حقداً قوةُ حُجَج محمد، وقدرةُ قرآنه على غزو الوجدان والعقل والفطرة .

هكذا كانت الدعوة إلى الإسلام اختياريّة فلم تقم على الإجبار، أو الإكراه ولكنها استندتْ على الوسيلة التى تتناسب وكلَّ عقل مع التماس الحكمة، واتباع الموعظة الحسنة والصبر .

آداب الغزو الفكرى « وقوة الحجة » :

بعد محاولة الإغراءِ والترغيب فى السلطان والجاه التى قام بها عُتبة بن ربيعة وفشلِ هذه المحاولة بدأت مرحلة جديدة من البطش، والقتل ، والتعذيب، والتنكيل ، والأذى ، والتمثيل بالمسلمين .

هنا أشار الرسول العظيم ﴿ﷺ﴾ على المسلمين بأن يتفرقوا فى الأرض .

فسألوه .. أين نذهب ... ؟

قال : اذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحية فإن بها ملكًا لا يُظْلمُ عنده أحد ... وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه ...

ولقد كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة وفى هذه الهجرة خرج أحد عشر رجلاً وأربع نسوة .. ومنهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت محمد ﴿ﷺ﴾ .

وخرج الجميع متسللين سرًا حتى وصلوا إلى البحر الأحمر وركبوا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة، فأقاموا فى خير جوار من النجاشى ولكنهم رجعوا بعد ثلاثة أشهر إلى مكة لأنهم علموا أن المسلمين فى مكة قد أصبحوا فى مأمن من قريش بعد إسلام حمزة وعمر .

ولقد كانت، هذه الفترة القصيرة التى قضاها هذا العدد القليل من المسلمين فى الحبشة ذات أثر فى مستقبل الدعوة الإسلامية حيث أقنعت المشركين أن أتباع محمد يقابلون الصعاب بصدر رحب من أجل دينهم وأنهم مصممون على التضحية مهما عظمت فى سبيل الله ورسوله .

وأما الهجرة الثانية فقد تمت بعد عام واحد من رجوع المسلمين الذين خرجوا فى المرة الأولى ، وذلك لأن المسلمين وجدوا أن موقف العنف والاضطهاد من قريش لم يتغير بل تزايد ، وتبين لهم أن إسلام حمزة وعمر قد زاد من حقد المشركين وطغيانهم ؛ لذا فكر كثير ممن هاجر إلى الحبشة أن يعود إليها مرة ثانية كما رغب غيرهم فى مرافقتهم ، خاصة حينما علموا من إخوانهم بما فعله معهم الأحباش من إعزاز وتقدير .

وخرج فى هذه المرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلاً وإحدى عشرة امرأة فوصلوا إلى الحبشة وأقاموا فيها إلا أن هذا العدد الكبير قد أقلق قريشا وزاد من مخاوفها ، وأخذت الوساوس والظنون الشيطانية تلعب بعقولهم ، ففكروا فى سد هذا الطريق على المسلمين وأرسلوا « عمرو بن العاص » و « عمارة ابن الوليد » إلى الحبشة ومعهما الهدايا النفيسة لكى يردوا المسلمين إلى مكة.

وما دار من محاولات ومجادلات وحجج يمثل قمة الأدب الإسلامى إقناعاً وإعجازًا وحواراً وحججاً فى مواجهة قوة التضليل والبطش .

المشهد الأول :

يدخل رجلان من البادية إلى قصر النجاشى بالحبشة ، ويطلبان مقابلة كبير البطاركة ، فيقودهم البطريارك يوحنا إلى حيث يجلس كبيرهم ، ويدور الحوار بين الرجلين وهما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة ، وبين البطريارك الأكبر .

عمرو بن العاص :

يوزع الهدايا الثمينة على جميع الحاضرين ، بينما يخص البطريارك الأكبر بهدية كبيرة يحملها أحد الغلمان الذى ينحنى إجلالاً ، ويقدمها عمرو ابن العاص، قائلاً :

هذه هدية أشراف مكة إلى البطريارك الأعظم ، ولعل رموز المودة بين مكة والحبشة منذ اندحار جيش أبرهة خير دليل على أن حرمة البيت العتيق فى الحسبان وأن دين النصارى هو الدين السماوى الذى لا يُنازع ، ومصلحتنا مشتركة ، وما جئنا من أجله هو الأمر الجلل الذى يستحق أن يحظى باهتمامكم ومساعدتنا فى إنجاز ما جئنا من أجله .

البطريارك الأعظم :

يتقبل الهدية بعد أن يفض الغلاف فتبهره لألأة الجواهر ، وبريق الذهب ويومئ بعلامات الرضا والارتياح . ويرد على عمرو بن العاص ، قائلاً : ما جئتما من أجله محل رعايتنا ببركة يسوع فتكلما .

عمرو بن العاص :

فر غلمان من مكة وهم فتنة على ديننا الذى وجدنا عليه آباءَنا ، ولقد فارقوا دين قومهم وأهليهم وعقّوا آباءَهم ، وهجروا نساءَهم ، وتركوا أبناءَهم، ثم إنهم قدمُوا عليكم بما يمثل خطورة على نصرانيتكم ، فلم يدخلوا فى دينكم ، ولم ولن يقبلوا الانضواء تحت لواءِ عقيدتكم ، ثم إننا أولى بهم لنعيدهم إلى مكة حيث يكون العدل الذى يقبله سادة مكة وأشرافها .

فادفع إلينا بهم ، وليس هناك ما يدعو إلى أن نَشْغَل الملك النجاشى بصغائر الأمور هذه ، فأنت صاحب الأمر والنهى فى شئون الدين ، ومخاطر الأدعياءِ والسفهاءِ .

وفى هذه اللحظات يدخل كاتم سر الملك ليطلب إلى البطريارك المثول إلى النجاشى ، فقد نما إلى علمه وجود مهاجرين جدد من مكة جاءُوا يلتمسون جواره فراراً من أهليهم ، وعلم أيضًا أن هناك من قدموا خلفهم لردِّهم إلى مكة والنجاشى يريد هؤلاء وهؤلاء لتقصّى الأمر وأخذ قرار بهذا الشأن .

وهنا نظر البطريارك الأعظم ومساعدوه إلى عمرو بن العاص ومن معه نظرة إعلام بأن الأمر خرج من يده ، وأن القرار سيكون فى يد النجاشى .

ولا يستطيع البطريارك إلاَّ أن يعينهم فى مطلبهم أمام النجاشى ، وقد يستطع إقناعه بوجهة نظر سادة مكة وأشرافها ، ويهرول البطريارك الأعظم وحوله حاشيته من رجال الدين ساعياً إلى حيث ديوان النجاشى عبر ردهات القصر .

وَلَمَّا مَثَلَ بين يدى النجاشى بادره الملك قائلاً : أما بلغك ما بلغنى ... ؟

وهذه من عظائم الأمور التى لا يجب أن تُؤَخَّر ، أو تُؤَجَّل ، أو أكون آخر من يعلم بها ، فأمور الفرار والجوار والمطاردة التى تحدث على ساحة بلادى ليست بالأمر الهين فإنها تخلق البلبلة . وتصنع النقائص ، ومجلبة للفتن خاصة ، وهى أمور تتعلق بعقيدة دينية جديدة وصراعات بين سادة يدينون بديانات راسخة وقديمة ، وبين قلة تزعم وتَدَّعى ، وليس لنا فى هذه أو تلك مصلحة ولا مطمع ، فما هى حقائق الأمور ومجرياتها .. ؟ ونحن بلد أمن وسلام ... وحتى البلاد التى تخضع لحكمنا فى اليمن محل طمأنينة واستقرار ...

فأتونى بهؤلاء ، وأولئك ، وإذا كانت الفئتان من السفهاء ، فلنقطع دابرهم ، حتى لا يأتى لبلادنا التى تنعم بسماحة النصرانية فاسق أو سفيه وليكن اللِّقاءُ مساء اليوم .

ويخرج البطريارك الأعظم مرتدًا بظهره ، منحنيًا بقامته ومثله مساعدوه فكلهم يعلم أن للنجاشى رأيًا نافذًا ، وأمرًا مطاعًا ، وحكمًا لايُعدَّل ، وعنده لا يظلم أحد .. وأمامه تنجلى الأمور ، ولا يتخابث أمامه أحد ، ففطرته وذكاؤه وحكمته كالمرآة تكشف ما أمامها دون زيف ، أو أصباغ ، وسرعان ما تنتهى خطوات البطريارك إلى خارج إيوان الملك ليرفع قامته التى أرهقها الانحناء .

ويلتقط أنفاسه ، ويُصْلح من هندامه ، ويعود إلى حيث يُنفِّذ ما أمر به النجاشى ، ويعلم سفراءَ قريشٍ ، والمهاجرين بمثولهم مساءً أمام النجاشى.

المشهد الثانى :

النجاشى على كرسى العرش فى أُبَّهة الملك ، وحوله حاشية - ورجال الدولة والصفوة من المستشارين والخاصة ، وكان قد استعد لاستقبال الوفد وسفراء قريش القادمين من مكة يحملون معهم رسالة أهل البيت العتيق .

ويُعلنُ أمين سر القصر قدوم سفيرى قريش وأنهما فى طريقهما إلى الديوان الملكى ، وحسب أوامره باستقبالهم أولاً وهنا ينظر النجاشى ويطوف بعينه فيما حوله ليتأكد من مواقع أعوانه ويقظة صفوته ، وأهبة مستشاريه لقراءَة حركات وسكنات أهل البادية وذكائهم المتقد .

ويدخل سفيرًا قريش وكانا « عمرَو بنَ العاص » و« عمارةَ بنَ الوليد » ومعهما غلمان يحملون الهدايا الثمينة التى خف وزنها وغَلا ثمنها .

وقالا للنجاشى :

أيها الملك العظيم : لقد ضوَى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءُوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فى شأنهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم ، وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعْلَى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

ولقد أتينا إلى الملك العظيم ليردهم إلينا، فنحن أعلمُ بما يستحقون ، وحتى لا تدوم الفتنة التى أوقدوا نارها ، ثم إننا نخشى أن يكون لهذه الفتنة امتداد إلى بلادكم بتواجدهم فيها ، ومحاولة نشر ما يدعون إليه .

هنا تعاظم الأمر فى نفس النجاشى ، وصاح قائلاً : أدخلوهم لنسمع لهم قبل أن نحكم عليهم .

المشهد الثالث :

يدخل رجال من المهاجرين ، منتصبى القامة ، تملؤهم الثقة ، وتبدو على محيَّاهم علامات من نور ، ويُرَى فى بريق عيونهم نقاء الفطرة ، وشموخ العزة باليقين الذى يعْمُرُ نفوسهم ، ووقف الرجالُ حيث أشار إليهم النجاشى ، وخلفهم النساءِ . ويتفحص النجاشى بعينيه النفاذتين هؤلاءِ الرجال وقد بدا على مظاهرهم جميعًا التواضع لشىء أكبر من الحياة ومتاعها، وفى عمق نظرته الفاحصة تبين النجاشى أن هناك ما هو أكبر من تواضعهم ، يتمثل فى قوة دفينة، وإرادة عارمة دفعتهم إلى أن يتركوا الوطن فراراً ويهجروا الاستقرار اضطراراً.

وفى لحظات الصمت التى فرضها النجاشى ، وهو يدور بعينيه ليجد فى شفاههم تمتمات لايسمعها ، ولكنه يراها فى حدقات عيونهم جميعا ، ويحدث النجاشى نفسه وخواطره ... ويتداخل فى قلبه مزيج من العطف والرحمة ، ولكنه وهو الملك لا يعرف العواطف عند الحكم ، ولا يعرف الرحمة عند العدل ...

وبعد لحظات الصمت والتأمل يسأل النجاشى مُوجهًا كلامه إلى زمرة الوافدين إلى بلاده المهاجرين من مكة قائلاً :

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ؟ ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ... ؟

واستأذن جعفر بن أبى طالب النجاشى أن يرد فقال :

أيها الملك . كُنا قوما أهل جاهلية ..

نعبد الأصنام .

ونأكل الميتة .

ونأتى الفواحش .

ونقطع الأرحام .

ونُسىءُ الجوار .

ويأكل القوى منَّا الضعيف .

وكنا على ذلك حتى بَعثَ الله إلينَا رسولا منَّا ، نعرف نسبه ، وصدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونَخْلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بِصدْق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور ، وأكل مال اليتم ، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة . والصيام .

فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناد على ما جاءَ به من عند الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئًا ، وحرمنا ما حُرِّم علينا ، وأحللنا ما أُحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان بعد عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أَلاَّ نُظْلَم عندك وإن نبينا قال لنا :

اذهبوا إلى الحبشة فإن فيها ملكًا لا يُظلمَ عنده أحدُ .

هنا علت أسارير الفرحة على وجه النجاشى ، وقال لجعفر بن أبى طالب :

هل معك ممَّا جاءَ به من عند الله شىءُ تقرؤد علَّى .. ؟

قال جعفر : نعم .

وقرأ من سورة مريم إلى قوله تعالى :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

«الآيات ٢٩ -٣٣»

فَأُخِذَ النجاشى ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وأُخِذَ معه البطاركة وقالوا : إن هذا والذى جاءَ به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . وهنا ردَّ النجاشىَ قائلاً :

هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات يسوع المسيح .

وقال للمهاجرين المسلمين :انطلقوا والله لا أسلمكم إليهما (مشيرا إلى سفيرىَ قريش).

هذه هى أول مناظرة بين الإسلام والكفر ممثلاً فى عَبدة الأصنام وحججهم ، وفى مواجهة من منطق النصرانية تلك الشريعة التى نزلت على عيسى ﴿عليه السلام﴾ .

وكانت هذه المناظرة الأُولى ممثلة لغزوة وجدانية امتدت آثارها إلى النجاشى وإلى وفد قريش الذين عادوا إلى مكة يجرون هزيمتهم الفكرية إلى قريش التى أصابتها نكسة وجدانية فى صميم عقديتها الوثنية .

وأيضًا لقد امتدت آثار هذه الغزوة الفكرية والعقائدية إلى قلب العقيدة النصرانية فى إفريقيا .

وأوجدت مناخًا من الصراع الوجدانى بين الفطرة الصادقة للنجاشى ، وبين كرسى البطريارك الأعظم هناك ، والذى تَخَوَّفَ على مركزه الدينى

دنيوى فألب رجال الدين وأشعل النزعة الدينية فى نفوس أصحاب السلطة نفوذ ، وتأججت الثورة ضد النجاشى وكان الاتهام الرئيسى ، أو السبب رئيسى فى ثورة رجال الدين هو تعاطف النجاشى مع المسلمين .

وكانت هذه الثورة يومئذ إعلانا عن وجود دين جديد تعاطف معه ملك حبشة ، وثار ضده رجال الكنيسة . وكان هذا الإعلان مثار اهتمام وجدانى أرجاء فسيحة فى إفريقيا ، ومهدت لدخول الإسلام فيها فيما بعد عن اقناع إختيار .

وهكذا كانت الغزوة الوجدانية ذات نصرين :أول نصر هناك فى إفريقيا .

وثانى نصر عاد مع سفيرَى قريش إلى مكة ليهزم الشرك فى عقر داره هزيمة وجدانية منكرة لتؤكد أن قوة اليقين ، وعمق العقيدة أمضى أسلحة النَّصْر أمام المكابرين والمتألهين عبر العصور .

غزوات فى ساحة القيم الإسلامية :

ولا نستطيع ترك الحبشة دون أن نشير إلى معركة وجدانية أُخرى صنعها محمد ﷺ بنفسه ، وكانت أيضًا معركة عقائدية صامتة ذات بعدين مؤثرين فى ساحة القيم الإسلامية :

البعد الأول :

يتمثل فى تكريم المسلم ورفع درجته فى مواجهة الخطوب زمانًا ومكانًا .

البعد الثانى :

مواجهة السيئة بالحسنة توقعا من المسىء إلى إعادة حساباته لنفسه ، ورجوعه عن إساءَاته .

فها هى أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان من المهاجرات الفضليات الأوائل تواجه خيانة زوجها الذى هاجر معها إلى الحبشة ، والذى استهوته سلوكيات النصارى هناك ، فهم يعبدون الله لكنهم يعبدونه ويستحلون ما يحرمه الإسلام خاصة شرب الخمر التى كان يعشقها عبيد الله بن جحش زوج رملة ، ولضعف إيمانه وقوة شهواته التى سيطرت عليه دان بعقيدة الأحباش وظل يعب خمراً ويحيا لهواً.

وترى رملة فى المنام كأن عُبيد الله فى أسْود صورة ولَما صحت من نومها فى تلك الليلة قال لها زوجها :

يا رملة : إنى نظرت فى الدين فلم أرى خيراً من دين النصرانية عقيدة الأحباش.

فردت أُم حبيبة قائلة : يا عبيد الله لقد رأيتك فى ليلتى هذه فى أسود صورة، أدين الحق تهجر ؟ وترضى بعقيدة الشرك بعد التوحيد ... ؟

أما سمعتهم وهم يثلثون الله إشراكاً ؟ أو يجعلون لله ولداً ؟ أو يُجَسِّدُون الله فى عيسى بن مريم ... ؟ أنسيت قول الله -تعالى- :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾

«سورة الإخلاص ، الآيات ١-٤»

والله .. هو الفراق ...

وشاع أمر عُبَيْد الله بين المسلمين ، ووضعت رملة ابنتها حبيبة ، وانطوت على نفسها تحنو على حبيبتها ، وتدعو الله أن يجعل لها من أمرها رشداً ، وأن يجعل لها فى محنتها هذه مخرجا ، وأن يجعل لها فرجا من هذا الحرج الذى سببه لها ارتداد من كان زوجها وأبا لابنتها .

وبلغ المصطفى ﷺ ما أصاب أم حبيبة ، وكان ﷺ قد هاجر من مكة إلى المدينة ، وصَعُب عليه أن تكون رملة فى غربتها محزونة القلب ، مُهَانَةَ الجانب ، خاصة أنها ابنة عزيز قوم مازال على عناده وكفره ، وهى التى اختارت الهجرة فى سبيل الله مضحية بالأهل والوطن ، ثم أصابتها محنة ارتداد الزوج ، وأيضًا فها هى فى غربتها تُعانى الأمرَّيْن ... والقلب الذى ذاق الاضطهاد والغربة يُحس بما تُعانى منه رملة .

الغزوة الوجدانية لضمير المرأة عبر العصور :

وهكذا وضع محمد ﷺ المعيار الأسمى لتكريم رَمْلَة فى زمانه ، وليكون نموذجًا لتكريم كل مسلمة تجاهد مهاجرة فى سبيل الله وفى سبيل العقيدة والكرامة .

فيرسل الرسول العظيم ﷺ إلى المالك العادل النجاشى كى يتعاظم شأن المرأة المسلمة العظيمة ، رملة السفيانية . ويتعاظم التكريم فى صورة تتناسب ومنزلة الدور الكبير الذى قامت به . وحجم المعاناة والألم الذى أصابها .

يرسل محمد ﷺ إلى النجاشى طالباً منه أن يُزَوِّجه من رملة ، ويرسل النجاشى جارية أمينة من عندد تسمى « أبرهة » إلى رملة ، وتستأذن فى الدخول إليها لتنقل لها رسالة الملك العادل النجاشى تلك الرسالة التى تقول: « إن رسول الله كتب إلَّى (أى إلى النجاشى) أن أُزوجك (أى أن يتزوجك محمد) »

فماذا كان رد رملة أم حبيبة ؟ :

قالت للجارية : بشَّرك الله بالخير ، وخلعت من رجليها سوارين من فضة وأهدتهما لأبرهة ، بعدها قالت الجارية : يقول الملك : وكِّلى من يزوجك .

ووكلت رملة خالد بن سعيد أحد المهاجرين معها، وجاء موعد الزواج المبارك وحيث أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، وحضر معهم من بالقصر من الصفوة، وهنا خطب النجاشى قائلا :

أما بعد : فقد أجبت ما دعا إليه رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾:

وقد أصداقتها أربعمائة دينار ذهبًا.

ثم سكب الدراهم على أيدى القوم.

ودعا بطعام فأكل الجميع وأعلن زواج رملة من رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾.

إنَّ هذا التكريم والتشري بمثابة إعلان بحقوق المرآة المجاهدة، وحقوقها الإنسانية من الرعاية والتقدير ، ثم إنه يضع المرآة فى موضعها الصحيح كأساس لصلاح المجتمع، ويصون لها كرامتها، ويحفظ عليها طُمأنينتها فى كل زمان ومكان.

وإن هذا التكريم كان بمثابة مكرمة ذات شأن فى نفوس العرب، وأيضا كان ذلك السلوك النبوى برهانًا على أن الذى يدعو إليه محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ دين القيمة ودين السمو الخلقى والوجدانى.

وسرعان ما تناقل العرب هذا الحدث الأخلاقى خاصة أن رملة لم تكن إذ ذاك فى حداثة أو مستهل شباب حتى يؤول الزواج بها إلى رغبة فى جمالها أو غيره بل كانت نَصفًا (١) راجحة، ولكنه كان زواجًا من أجل تقديرها على الصبر، وتحملها الأذى، وعودة الطمأنينة إلى نفسها.

كان هذا هو الجانب التكريمى لرملة فى شخصها ، إلا أن الرسول العظيم ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ يُعْطِى درسا وجدانيا وأخلاقيا تتمثل عناصره فى الآتى:

---

(١) نصفا : أى كهلة تجاوزت الأربعين من عمرها.

أولا : مواجهة السيئة بالحسنة

إن مواجهة السيئة بالحسنة مبدأ من المبادئ التى تُهَدِّئ الخواطر ، وتقرب بين الفرقاء، وهكذا فلقد أرسل الرسول ﷺ رسالته الوجدانية السامية إلى أبى سفيان الخصم اللدود للرسول رسالة فيها رفع لقدر ابنته رملة ، وإعزاز لمقامها فى غربتها وتتويج لمقامه وسيادته فى قريش .

وكانت هذه الرسالة فى رموزها ومغزاها تهدف إلى التواصل الوجدانى مع الأفئدة النافرة ، والنفوس الطاغية ، وكانت و سيلة لالتماس القرب والمودة وهدهدة سخط أبي سفيان وعناده.

وهكذا وضع الرسول ﷺ رَمْلَةَ فى مقام كبير فى غربتها، وكرَّمها فى بلد النجاشى ، وليس من قبيل المبالغة أن نؤكد أن هذا السلوك النبوى كان بمثابة غزوة إلى وجدان وإدراك الفكر الجاهلى ، والمواجهة العنيدة من المشركين، واستطاعت هذه الغزوة بسماحة منهجها وسمو قيمتها فتح ثغرات فى جبهة التحدى والشرك .

ثانيا : السمو الروحى لعقيدة المسلم

إن الدعوة الإسلامية هى الدعوة السامية التى ترتقى بالإنسان إلى غاية الذروة من السمو ، فإنها تحطم كل عائق بين المرء وَرَبِّه ، وتكون الصلة قوية بقوة العمل الصالح ، والتقوى . ومن خلال الروح ، وهى علاقة مباشرة دون وساطة من صنم ، أو وثن، أو كهنة . أو عرافين، فليس هناك شىء يحول دون أن تلتقى الروح الانسانية لتتصل بالوجود كله صلة خير ومعروف ، وليكون الجزاء من الله مضاعفًا أضعافًا ومتلقى هذا الجزاء هى الروح التى هى من أمر الله ، تلك الروح المتصلة بأزل الزمن وأبده ، وهذه الروح إذا ما عملت صالحًا فلا حجاب بينها وبين وجه الله ، ولا سلطان لغير الله عليها .

ولهذا نرى كثيراً ممن يعذبون فى عقيدتهم الإسلامية لا يستسلمون أبداً، ويعطينا التاريخ كثيراً من النماذج الخالدة عن هؤلاء الذين عذبهم المتألهون دون جدوى، لأنهم إنما يعذبون الجسد، وقد يستطيعون إهلاكه ولكنهم لا يَصِلُونَ إلى الروح ما دام صاحبها أراد بها سُمواً فوق سلطان المادة، وفوق سلطان الزمن، ولهذا يُعذَّب جسده فتزداد روحه سمواً وارتقاءً، ويهون عذاب الجسد أمام متعة سمو الروح. وهذا ما أحسه عمر بن الخطاب القوى الشكيمة الذى تهابه قريش عندما أراد قتل أخته التى أسلمت، عمر الذى كان مفتول العضد، حاد الطبع، سريع الغضب، محبا للَّهو والخمر، وكان عدواً لدوداً للمسلمين، ويهوى إيذاءهم، ولقد بلغ به الضيق مبلغًا كبيراً حينما عرف أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة، وعلم أن النجاشى حماهم، ولم يتبق فى مكة غير محمد وقلة قليلة من الصحابة، وقرر أن يُخَلِّص مكة من محمد حتى ترتاح ويرتاح منه الجميع.

وعلم أن محمداً يجتمع الآن عند الصَّفَا مع صحبه أبى بكر، وعلى بن أبى طالب وعمه حمزة، وغيرهم، وصمم على الذهاب إلى هناك ليقتل محمداً ... وسار نحو الصَّفَا تحمله إرادة المجد الذى سوف يناله عندما يقتل محمداً، وتدفعه ثورة الشباب سراعاً. وقابله فى الطريق « نعيم بن عبد الله » الذى عرف وجهة عمر ونيته، فقال له:

يا عمر ... والله لقد غشتك نفسك من نفسك ...

أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت محمداً ... ؟

أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ... ؟

لقد أسلمت أختك وزوجها سعيد بن زيد.

وسمع عمر من نعيم ما سمع فاحمرَّ وجهه، وغلى فى العروق دمه، وانكفأ عائداً إلى بيت أخته، ودخل هائجا عليهما فوجد عندهما ثالثًا يقرأ شيئًا، وسرعان ما اختفى خوفا من عمر، وتتأجج ثورة عمر، ويعلو زئيره، وتخفى فاطمة الصحيفة التى كانوا يقرءون منها.

ويسألها عمر : ما الهَيْنَمَةُ التى سمعت ... ؟

قالت : هى هينمة لا تضر ...

قال : يا فاطمة لقد علمت أنكما تابعتما محمداً على دينه، أتنكرين يا بنة الخطاب ... وأنت يا سعيد؟ ، وانهال على سعيد ، وبطش به بطشا شديداً ، فما كان من فاطمة إلاَّ أن ألقت بنفسها على زوجها لتحميه من جبروت عمر الذى هوى بقبضته على فاطمة فشج رأسها فتدفق الدم منها وغطى وجهها وملابسها وصاح سعيد وفاطمة فى عمر : نعم ... نعم ... نعم ، أسلمنا لله وصدقنا رسوله فاقض ما أنت قاض .

والمنظر فى عينىْ عمر العطوف البار بأهله أسكته ، وأسكن ثورته فكيف يفعل بأخته هكذا ، وكيف يسيل دمها بهذه القسوة ... ؟ وها هو عمر يضمد ويمسح جرح أخته . ومد يده ليأخذ منها الصحيفة التى كانوا يقرءون فيها ، فأخذتها منه فاطمة وانتزعتها منه ...

وقالت : إنا نخشاك عليها

قال عمر : لا تخافى وحلف لها ليردنها إليها إذا قرأها .

فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت : يا أخى أنت نجس وإنه لا يمسه إلا طاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة فقرأ فيها:

﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾

«سورة طه ، الآيات ١ ـ ٨»

ولَمَّا انتهى من القراءَة تغير وجه عمر، وأحس بالندم لِمَا صنع بأُخته وزوجها، أحس بالندم على تأخره فى دخول الإسلام، وخرج من عند فاطمة مسرعًا فلقد لان قلبه، واطمأنت روحه، لأنه رأى سمو روح سعيد وأخته فاطمة، وقت أن بطش بهما، ولأنه رأى إصرار فاطمة على الدفاع عن سمو عقيدتها برغم تدفق دمها، وبرغم أنها تعرف قوة وجبروت عمر، وأنه قادر على قتلها هى وزوجها ... إلاَّ أنها تمكست وشمخت بروحها أمام بطشه.

هنا تسللت إلى روح عمر سكينة لم يحسها من قبل، ووقف عمر أمام محمد ﷺ يعلن إسلامه، وينطق بالشهادتين « أشهد أن لا إلهَ إلاَّ الله وأشهد أنكَ يا محمد رسول الله ».

وكان إسلام عمر - الذى غزت نفسه القوية الشامخة المُهَابة التى لا ينفذ إليها إلاَّ ما كان مؤثرًا وقويًا بمثل قوته، وعظيمًا يغطى على عظمته، وصادقًا يسمو فوق مصداقية فطرته - إعجازا وجدانيا أحسَّه فيما سمع، نعم لقد غزَتْ نفسه أبعاد السمو الروحى التى ائتلفت مع سمو إعجاز ما سمع من قرآن، ولأنه النبع الصافى الذى يروى جذور الفطرة ومهجة الروح، فلقد نهم من هذه الكلمات روح عمر وارتوى وجدانه فأفاق من غفوته، فَآمَنَ عقله، وأمِن فؤاده.

وكانت هذه الغزوة الروحية إلى كينونة عمر، غزوة إلى ركن ركين من أركان الشرك، لأنه كان الفتى والبطل والسند لقريش، وهكذا جاءَ إسلامه كأكبر حدثَ فَتَّ من عضد قريش، وعزز المسلمين بعنصر قوى يُعمل له ألف حساب.

فلم يُخْفِ إسلامه ولم يَستَتِرْ. بل أعلن إسلامه على رءُوس الملأ، وأيضًا لم يرض عن استخفاء المسلمين وتسللهم إلى شعاب مكة ليقيموا الصلاة فيها بعيداً عن أذى قريش، بل ناضل، وتحدى وصلَّى عند الكعبة، وصَلَّى معه المسلمون، وكانت هذه الغزوة الروحية التى أثرت فى عمر بن الخطاب بمثابة

غزوة إلى قلب مارد الجاهلية الجاثم على صدر قريش ، فلقد أيقنت قريش أن التحدى الذى يُثيره عمر بن الخطاب بعد إسلامه يخلق جواً من الاستنفار والاستفزاز، ربما قد يؤدى إلى حرب أهلية لا يعرف أحد عاقبتها ، فأية محاولة من قريش لقتل عمر بن الخطاب ، أو قتل أى واحد ممن أسلموا من مختلف قبائل قريش وبيوتها سوف تُؤدى إلى حرب مع قبيلته التى سوف تثور لقتل أى واحد منها . وإن كان على غير دين قبيلته ، وكان الرأى الحكيم بعدم محاربة محمد والتفكير فى وسيلة لا يترتب عليها قيام حرب أهلية، وهكذا كانت المهادنة ، والصبر من جانب قريش على إيذاءِ المسلمين .

غـزوة الصمـود الاقتصـادى :

انتقلت المعركة التى يفرضها الكفار على المسلمين الأوائل ، انتقلت بعد إسلام عمر بن الخطاب من مرحلة الإيذاءِ ، والاضطهاد ، والإساءَة ، والتعذيب إلى مرحلة جديدة من التآمر . فكانت الاتفاقية بين عشائر قريش على مقاطعة بنى هاشم ومحمد وصحبه ، وتم صياغة صحيفة المقاطعة وعلقت فى جوف الكعبة ويعتبر هذا بمثابة توثيق لهذه المقاطعة وتسجيل لها ، وأهم ما تضمنته هذه الصحيفة هو : « مقاطعة بنى هاشم ، فلا ينكحون إليهم ، ولا ينكحونهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم شيئًا » .

كانت المؤامرة تقصد التجويع ، والإذلال . والحرمان ، والأذى والإضعاف فالمقاطعة تهدف إلى العزل الكامل ، وعدم التعامل بيعًا ، أو شراءً ، أو تزويجاً منهم أو لهم ، ويعنى هذا تعطيل الحركة الحياتية ماديًا ومعنويًا .

ثم وبواسطة القهر والإجبار سوف لا يتعامل معهم أيضاً كل القادمين إلى مكة من أجانب أو حجيج تعاطفا مع كل العشائر المقاطعة للمسلمين ، والمحاصرة لهم وكانت الغاية من هذا الحصار هو أن يتباعد المسلمون تباعاً ويعتزلوا محمداً ﷺ ، فيبقى وحيداً ، ولا يبقى له ولا لدعوته أىُّ خطر .

مدة المقاطعة والحصار :

استمرت المقاطعة ثلاث سنوات .

أساليب ووسائل قريش فى المقاطعة :

لقد اتخذت قريش فى محاربة محمد ﷺ كل الأساليب للقضاء عليه وعلى دعوته ، فهددت محمداً ،وهددت أهله ، وأتباعه ، وأعمامه .

هَوَّنَتْ من دعوته وسخرت منه وممن اتبعه .

هجته بكل فنون الشعر وبواسطة فحول الشعراء .

أرسلت شعراءَها لهجائه ، والتقليل من دعوته هنا وهناك . آذته ، وآذت أصحابه ، ولجأت إلى كل وسائل السوء ، والتعذيب ، عرضت عليه المُلكَ والسيادة وكل مطامع الدنيا من الجاه والسلطان ، شردّت أنصاره وهددت تجارتهم ، وحاصرت مصادر أرزاقهم ، أشعلت نيران الفتن هنا وهناك بين المسلمين وكل المتعاملين معهم . أنذرت بحرب لا تُبْقِى ولا تذر لكل من يتعاطف مع محمد ﷺ وصحبه ، ثم قاطعته وحاصرته فى شعاب مكة هو ومن آمنوا به وأسلموا لله .

أساليب ووسائل محمد ﷺ فى المواجهة :

مع كل هذا فلقد ظل ﷺ معتصماً بحبل الله ، واستمر فى دعوته للناس بالحسنى إلى الإسلام الذى بعثه الله به للناس بشيراً ونذيراً .

النتائج التى أسفرت عنها المقاطعة :

لقد كان لهذه المقاطعة أثر كبيرٌ فى نفوس العقلاءِ الذين يقاربون بين

الأساليب والوسائل ، وبين الصلف والصبر ، وبين الاعتداءِ والاعتدال ، فهاهم يرون محمداً صابراً ، داعيا بالحسنى ، ويرد الإساءَة بالصبر ، يذود عن دينه ورسالته بالحكمة والموعظة الحسنة .

وتبدو فى الأفق دعوة محمد ﴿ﷺ﴾ تزداد انتشاراً ، وتبلغ الدعوة آفاقاً بعيدة خارج مكة بعد أن كانت محصورة فى حدود جبالها فقط ، وتسامع الناس والقبائل عن هذه الدعوة ، وبفضل المقاطعة التى تعرض لها محمد ﴿ﷺ﴾ ذاع صيته، وذاع أمر الدعوة بين العرب .

وهكذا حققت هذه المقاطعة انتشاراً ، وذيوعًا للدعوة فى شبه الجزيرة وبلغت قبائلها ، وخلقت جواً من التساؤل ، والجدل، والتشكيك ، والتصديق بين القبائل التى لا غنى لمكة عنها ، ولا غنى لها عن مكة فى الحل والترحال تجارة وطوافًا .

لقد تحقق لدعوة محمد ﴿ﷺ﴾ فى ظل المقاطعة غزو فكرى بلغ الآفاق فى شبه الجزيرة كلها ، وغزو فكرى إلى العقول الحكيمة فى العشائر المُقَاطِعة نفسها، والتى شاركت فى التوقيع على صحيفة المقاطعة التى علقت فى جوف الكعبة لتكون مُلزمةً للجميع ، فلم تفلح وسائل قريش فى إقناع القبائل لكل أساليب الدعاية من مجادلة ، وحجج ومهاترة . وترويج للإشاعات ، وتضعيف وتهوين لحجج محمد ﴿ﷺ﴾ .

وكان لتصميم قريش على مواجهة دعوة محمد ﴿ﷺ﴾ وتزايد أساليب الدعاية ضده أثر فى نفوس القبائل التى تفد إلى كل عام للتجارة والحج . فكانت وفود الحجيج تتزايد ألوفا وألوفًا ليشهدوا هذا الذى يحدث فى مكة خاصة فى الأشهر الحرم التى يستطيع فيها محمد الدعوة لدينه الجديد ، والتى كانت تحقق كل عام غزواً فكريًا وانتشاراً فى كل اتجاه ، وحيث لم يكن يتاح لمحمد ﴿ﷺ﴾ ولا للمسلمين الاختلاط بالناس إلاَّ فى الأشهر الحرم ، وحين يفد الناس إلى مكة حاجين وحين تضع الخصومات أوزارها ، فلاقتل ، ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام .

وإضافة لانتشار الدعوة خارج مكة ، فلقد استطاعت الدعوة غزو العقول الحكيمة فى قريش وعشائرها التى وقَّعت على صحيفة المقاطعة ، ودلالات هذا الغزو تتجلى فى سؤال كان يراود خواطر هؤلاءِ يسألونه لأنفسهم وفيما بينهم :

أحقًا أن محمداً يدعو إلى الدين القيم ... ؟

أحقًا أن ما يعدهم وينذرهم به هو الصحيح ... ؟

ولقد كان لهول ما أصاب المسلمين من اضطهاد على يد قريش ، وهم منهم إخوانهم وأصهارهم ، وأبناء عمومتهم ، ما جعل أصحاب هذه العقول الحكيمة يشعرون بفداحة ما يرتكبون ، وما ارتكبوا من ظلم وإذلال ، وقد كان نفر قليل منهم يحملون إليهم الطعام فى الشعب الذى يحتمون به ولولا ذلك لهلكوا جوعا.

وكان أكثر الرجال إشفاقًا وكرمًا هو هشام بن عمرو الذى كان يأتى بالبعير وقد حَمَّله بقدر ما يحتمل طعامًا . ويسير به فى جوف الليل حتى يصل إلى مدخل الشِّعب ، وعنده يخلع خطام البعير (لجامه) ويتركه يدخل الشِّعب بما على ظهره . ولَمَّا بلغ الاضطهاد ذروته وبما لم يعد يحتمله ضمير هشام بن عمرو، سار هشام إلى زُهير بن أبى أمية ، وكانت أُمه عاتكة بنت عبد المطلب قال له قولته المأثورة :

يَا زُهَيرُ

أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمنا ، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم .

اما انى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا ...

وبعد صمت ، وحيرة ، ومراجعة أحَسَّ زهير بفداحة الأمر وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة .

واستعانا على ذلك بغيرهما ممن وَقَّعوا على صحيفة المقاطعة ، ومنهم المُطْعمُ بن عَدِى ، وأبى البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود .

وأجمع الخمسة على أمرهم ، وتعاهدوا على نقض الصحيفة وفى غَدَاة طاف زهير بن أُمية بالبيت سبعاً ، ثم نادى فى الناس يا أهل مكة ، يا أهل مكة، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هَلْكَى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم . والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفة الظالمة . وقام من فوره يؤيده الكثيرون وبرغم اعتراض أبى جهل - الذى استسلم للأمر ، وأحس بوحدته فى اعتراضه - قام زهير ليمزق صحيفة المقاطعة . وتكون المفاجأة للجميع أن كل ما كتب فى الصحيفة قد أكلته الأرضة . وهى حشرة قارضة - ولم تُبق إلاَّ على كلمة «باسمك اللهم» .

وهكذا نَقَشَتْ هذه الصورة الوجدانية رموزًا إيمانية على ساحة المشاهدة ، ولتؤكد انهزامية المكابرين ومصداقية محمد ﷺ ودعوته .

وهكذا عاد محمد ﷺ وأصحابه من الشِّعب إلى مكة بصورة تختلف عما قبلها ، عاد ودعوته قد تجاوزت آفاق مكة إلى ساحة أكبر قد تبلغ ساحة شبه الجزيرة كلها .

عاد محمد ﷺ، وقد قَوِيَتْ دعوته ، ورسخت فى عقول ووجدان الكثيرين حتى من المشركين الذين تبين لهم الحق إلاَّ أنهم يكابرون وفق مصالحهم وأهوائهم .

ومع كثرة الذين اتبعوه ، فإن أصحابه لم يسْلموا من أذى قريش ، ولم يستطع أن يُدافع عنهم .

ولم تمض إلا شهور على نقض الصحيفة حتى فاجأت محمدًا فى عام واحد فاجعتان اهتزت لهما نفسه ، هما موت أبى طالب وخديجة .

وما لبث محمد بعد أن فقد هذين النصيرين حتى رأى قريشًا تزيد من إيذائه، وتكثر فى مساءاتها ، حتى ضاق بهم، وخرج إلى الطائف وحيدًا لا

يعرف بأمره أحد يلتمس من أهلها النصرة والمنعة بهم من قومه ويرجو إسلامهم .

موقف أهل الطائف من محمد ﷺ :

ثَقيف هم أهل الطائف ، ولقد ذهب محمد ﷺ إليهم لعله يجد عندهم النصرة ، ولعله يستطيع أن يضمهم إلى زمرة المؤمنين به وبرسالته ، لكنهم أهانوه ورفضوا أن ينصروه أو يستمعوا إليه .

وطلب منهم الرسول الكريم ألا يذكروا شيئًا عن رفضهم نصرته وإهانته حتى لا يشمت به قومه .

فلم يسمعوا له وأغروا به سفهاءَهم يسبونه ويطاردونه ، وانتهى به المطاف إلى حائط فاحتمى به فرجع السفهاء عنه وجلس إلى ظل شجرة من عنب ولمَّا اطمأن رفع رأسه إلى السماءِ شاكياً إلى ربه قائلا :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوَّتى ، وقِلة حيلتى ، وهوانى على النَّاس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ... ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوٍ ملَّكته أمرى؟ إن لم يكن بك علَّى غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل علَّى سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

وكان على مقربة منه عُتبة وشَيبة ابنَا ربيعة صاحبا هذه الحائط التى أوى محمد ﷺ إليها ، وأطالا التحديق به وهو يرفع رأسه إلى السماءِ داعياً بما لم يسمعا من قبل .

وتحركت نفساهما شفقة عليه وإشفاقًا من سوء ما لقى ، فبعثا إليه غلامهما النصرانى عَداسًا ، بعنقود من العنب ، وقبل أن يأكل ﷺ قال : «بسم الله » ثم أكل ، فنظر عَدَّاس دَهشاً وقال لمحمد:

- هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فسأله محمد عن بلده ودينه فعلم أنه نصرانى من نينوى، قال له ﴿ﷺ﴾ : أمِنْ قرية الرجل الصالح يُونس بن مَتَّى ؟ فسأله عَدَّاس . وما يدريك ما يونس بن متَّى ... ؟

قال محمد : ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى .

هنا تهلَّلت أسارير عَدَّاس ولمْ يتمالك نفسه وأكب على محمد يُقبل رأسه ويديْه وقدميه وسط ذهول وعجب ابنى ربيعة لِمَا رأيا وسمعا .

وإن لم يصرفهما ذلك عن دينهما إلا أن هذا المشهد الجلل طيَّب خاطر الرسول ﴿ﷺ﴾وأزال من نفسه بعض الضيق والحزن الذى أصابه من مساءات ثقيف .

وعرفت قريش ما حدث لمحمد فى الطائف فازدادت إيذاء له ، ولكن لم يصرفه ذلك عن الدعوة لدين الله .

وعرض محمد ﴿ﷺ﴾ على قبائل العرب دعوته فأتى قبيلة كندة وكَلْبٍ وبنى حنيفة وبنى عامر فلم يَسْمَعوا له وردود جميعاً رداً غير جميل .

وكانت كل مساءَة من مساءَات هذه القبائل جميعاً ذات لون خاص يصعب على أى نفس إنسانية قبولها .

إلا أنه هو محمد الذى أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبَهُ يُسَاء إليه فيعفو .

ويُسَاء إليه فيدعو الله أن يَهْدِىَ من أساءَ إليه .

يُساء إليه فيزادد حلماًوعطفاً .

يُساء إليه فيصفح .

يُهان فَيُكْرِم ويَصبر .

يُحْرَم فَيُعطِى ويُغْدِق .

لماذا ... ؟ لأنه النبى العظيم ﴿ﷺ﴾ .

الإسـراء والمعـراج

فى هذا الجو المفعم بالألم والمعاناة والحزن والحرمان، وافتقاد الأعزاء والأحباب يصبر محمد ﴿ﷺ﴾ صبراً طويلا ويدعو الله دعوته الخالدة التى منها :

« اللهم إن لم يكن بك عَلَىَّ غضب فلا أبالى » .

حينئذ تمتد يد الرحمن بالرحمة والخير والحنان، وتحتضن العناية الإلهية محمداً ﴿ﷺ﴾ لترتفع به إلى أسمى مكان، فَيُسْرى به إلى بيت المقدس ويُعَرَج به إلى السماءِ عوضاً عما لحقه من أذى، وأصابه من عنت وألم .

وكان موعد محمد ﴿ﷺ﴾ بعد هذا العناء مع عناية ربه ومع آيات ربه الكبرى، ليغزو بوقفاته النورانية مواقع سوف تشرق عليها شموس الإسلام .

فها هو يحمله البراق فوق جبال مكة حتى يصل به عند جبل سيناء حيث كلَّم الله موسى تكليماً، ثم يحمله ليقف به عند بيت لحم حيث ولد عيسى .

وبعدها يحمله إلى بيت المقدس، فيصلى على أطلال هيكل سليمان ويصحبه فى صلاته هذه إبراهيم خليل الرحمن وموسى كليم الله وعيسى بن مريم كلمة الله .

ثم يعرج إلى السماء من موضع صخرة يعقوب ﴿عليه السلام﴾، وفى السموات يرى من آيات ربه الكبرى، وهناك يرتفع إلى قمة سدرة المنتهى التى توجد على يمين العرش، وعندئذ تكون شفافية الروح المحمدية قد بلغت الكمال لأنها تجاوزت بعمق إيمانها وبرفيع آدابها حجُب الجمال والجلال .

وانكشف عنها ما قدره الله لهذه المنزلة البشرية الرفيعة من الحجب لتكون فى حضرة المولى عز وجل .

إن الإسراء والمعراج يُعلّم النفس البشرية معالم السمو والارتقاءِ والشفافية القائمة على الإيمان فى كل ما جاءَ من عند الله، والسلوك الإيمانى فى إطار أوامره ونواهيه .

إن مشاهد الإسراءِ والمعراج المروية على لسان المصطفى ﷺ والتى رآها رأى العين والقلب تمثل غزوة وجدانية إلى كل من يرى بقلبه ويعى بفطرته الفارق بين عرض الدنيا ونعيم الآخرة ، فيأتى خِيَارُه مقترناً باختياره الواعى لمنزلته فى الدار الآخرة .

ثم إن الإسراء والمعراج غزوة دائمة متجددة لإدراك بنى الإنسان وتصوير دقيق للوحدة الروحية للوجود من أزله إلى أبده ، وهى أيضاً تصوير بليغ لوحدة الرسالة السماوية الهادية للبشرية ، وتصوير بليغ لتطور الوجود تجاه الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق ومغالبة الباطل والشر .

ثم إن الإسراء والمعراج رمزية إلهية من خلال المشاهدة الروحية ، فهذا التعريج على جبل سيناء حيث كلم الله موسى ، وعلى بيت لحم حيث ولد عيسى وهذا الاجتماع الروحى الذى ضم محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم ؛ يُبرز علامة مُضيئة فى عقيدة الإنسانية ويُؤكد على وحدة الحياة الإنسانية ووحدة الرسالة السماوية المتدرجة مع مراحل النضج الروحى للإنسان .

ويؤكد أن الرسالة المحمدية هى ختام هذه الرسالات السماوية ، وأيضاً فإن رمزية الإسراء والمعراج وهى تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون فى نفس محمد ﷺ تصويراً صادقاً تُبَرهن للإنسان على أنَّه يستطيع أن يصل إلى درجات السمو إذا ابتعد عن زيف الحياة الدنيا ، وارتقى بفكره وإدراكه إلى كُنْه الحقيقة العليا ليعرف مكانه فى الوجود وأهمية السعى لبلوغ الكمال .

ويقول فى هذا الصدد « محمد حسين هيكل » فى كتابه حياة محمد عن الإسراء والمعراج :

ففى الإسراء والمعراج فى حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو معنى أكبر من هذا الذى يصورون .

فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه فى ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها .

لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المُحسَّة والمدبْرة والعاقلة .

تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه من أزله إلى أبده ، وصوره فى تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق وفى مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة، .

إنها غزوة فكرية إلى كل العقول الباحثة للوصول إلى حقيقة هذا الوجود ومحصلة نظريات لم تصل إليها العلوم الحديثة حتى يومنا .

وهذه الغزوة الفكرية ومحصلة أبعادها ونتائجها وبراهينها التى توصل إليها محمد الإنسان بسموه الروحى تؤكد على :

-أن مجتمع الفضيلة القائم على الحق والفضل والجمال هو ذلك المجتمع الذى يكون ارتقاؤه وسموه الروحى أسْمى مظاهر التقدم والارتقاء التى تتفوق على أية صورة للتقدم المادى فى أى عصر .

-أن بلوغ الكمال الروحى والعقائدى هو القوة التى لا تقهر ولأن هذا الكمال العقائدى لا يقف أمامه عائق من الإرهاب أو البطش والجبروت إلا واندحر .

- وأن الدعوة الإسلامية والتى تمثل ختام الرسالات السماوية للبشر هى الخالدة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

-أن الله وحده لا شريك له ، ووحدة الكون من أزله إلى أبده هى الصورة المعبرة عن هذه الوحدانية .

-أن جميع الأنبياء والرسل ما أُرسلوا إلا لهداية البشر وكل منهم جاءَ بفصل من فصول الرسالة التى تلائم مراحل النضج الروحى والتى انتهت بالدعوة الإسلامية .

-أن اللجوءَ إلى الله والسمو بالفكر الإنسانى من خلال التدبر الروحى يوصل إلى غايات كبرى من التفوق الذى لا يعادله تفوق آخر على الأرض .

هذه هى بعض ظواهر الغزوة الروحية التى تنطق بها مشاهد الإسراء والمعراج . ويمكن التوصل إلى ما هو أبعد وأعمق دلالة وأثراً عبر الأجيال لاستكشاف المغزى من الإسراء والمعراج التى لا يمكن أن تكون كموقف احتفالى فى الإسلام ، لكنه معلَمٌ من مَعَالِم السمو الفكرى والأدب الروحى للبشرية، ومدخل من مداخل الارتقاء العلمى والوجدانى .

لقد كانت مشاهد الإسراء والمعراج نقطة تحول كبير فى منهج الدعوة الإسلامية فها هو الإسلام قد ارتكز فى قلوب قلة من الناس ، إلا أن هذه القلة من الأوائل تحمل فى كينونتها مستقبل الرسالة ، ولهذا فلو وُزِنَتْ أحمال إيمانهم وعقيدتهم يومها لفاقت أحمال إيمان العالمين .

لهذا جاءَ الإسراء والمعراج اختباراً لهذه الصفوة ، وحتى يتم تصنيفها من أى شوائب ، فكل من أدرك معانى الإسراء والمعراج وصدَّق محمداً ﷺ فقد وصل إلى كنه الحقيقة العليا .

وعرف حقيقة مكانه ومكان العالم له من هذه الحقيقة وكل من ساورته الظنون وحل به ريب ، فقد ارتد إلى موقعه من الشرك والكفر . .

وتحددت عبقرية الصفوة والصُحبة التى سوف تشارك محمداً وتحمل مرحلة الدعوة والدفاع عنها بالنفس والنفيس .

لأن المرحلة التالية : هى مرحلة الغزو المنظم القائم على الثقة فى الله وقوة العقيدة والإرادة .

فلم يأبه محمد ﷺ بعد الإسراءِ إلى مساءات قريش التى لم تعِ معنى الإسراءِ والمعراج الذى حدثهم به .

ولم يأبه لرد القبائل له وعدم نصرتهم إيَّاه .

ولم يأبه لرد ثقيف فى الطائف ولا لقبائل كندة وكلب ، وبنى عامر وبنى حنيفة لمَّا عرض نفسه عليهم فى موسم الحج .

وبدت فى الأفق ملامح غزوة جديدة قادمة من يثرب وإليها، قادمة تَنْشُد السَّبْق .

ولقد هيَّأت الأقدار لهذه الغزوة مقومات النجاح، وفَتَحَتْ نافذة الأمل على يثرب .

ففى يثرب يتواجد أَخوال النبى « بنوالنجار» .

وفى يثرب وفى منطقة الأبواء يتواجد قبر أُمه الحبيبة آمنة بنت وهب .

وفى يثرب يتواجد اليهود الذين كانت لهم السيادة حتى يوم أَن قدم نصارى الشام الرومانيون وأَغاروا على يثرب فى محاولة منهم لقتل يهودها بحكم المفاهيم الراسخة عندهم والتى تقضى بأَن اليهود هم الذين صلبوا المسيح وعذبوه ، وعندما قدم نصارى الشام الرومانيون الشرقيون ولم يظفروا باليهود استعانوا بالأوس والخزرج وعندئذ استطاعوا أَن يقتلوا كثيراً من اليهود وبمقتل هذه الكثرة ضعف موقف اليهود ولم يعد لهم السيادة فى المدينة .

ومن أجل هذا نشروا الفتن والدسائس بين الأوس والخزرج وأَشعلوا نار الحروب بين هذه القبائل كى لا يتفوقوا عليهم وحدة وقوة .

لذلك كره عرب يثرب يهودها لما سببوه من فتن وحروب ، كذلك لسعيهم الدائم لاستعادة مكان السيادة على العرب ، وهم أيضاً يعيبون عرب المدينة على عبادتهم للأصنام واتخاذهم لهذه الأصنام زلفى ووسيلة للتقرب إلى الله.

ثم إن اليهود لا يقبلون دخول أىً من البشر فى ديانتهم لأنهم هم شعب الله المختار، وأن الله خصهم بهذه الديانة ، وأن ماعداهم من البشر لا يستحقون دخول هذه الديانة السماوية .

وأيضاً فإن اليهود كانوا ينذرون العرب بقرب بعث نبى يقضى عليهم وعلى أوثانهم ويُشَايع اليهود .

هكذا كان الجو النفسى لعرب يثرب ، وهكذا خَلقَ اليهود هناك مناخاً من التوتر والقلق النفسى والوجدانى ، ولقد كان ذلك تدبيراً إلهيا وتمهيداً لإخصاب الإدراك والعقل العربى فى يثرب لتقبل الدعوة المحمدية والرضا بالغزو الروحى الإسلامى لوجدان أهل المدينة وقلوبهم المتلهفة للأمن الروحى .

وسرعان ما دارت معركة بُعَاث بين الأوس والخزرج ودارت الدوائر بهؤلاء وأولئك وضعفت مكانة الفريقين فى يثرب واستطاع اليهود منذ ذلك اليوم استعادة مكانتهم وسيادتهم بيثرب .

وفى هذه الأثناء كان موسم الحج إلى مكة ، وخرج نفر من الخزرج إلى مكة ، ولقيهم محمد رسول الله ﷺ لما عرف بأنهم من يثرب وكلمهم ودعاهم إلى الإسلام .

ودارت بخواطرهم كل أحداث السنين والحروب والدمار والفتن ، ودارت بخواطرهم أيضاً ما كان يقوله لهم اليهود كلما اختلفوا معهم : « إن نبيًا مبعوثاً الآن قد أظل زمانُه نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم »

واستجابت ملكاتهم واستراحت خواطرهم ، وأمنت سرائرهم وسرعان ما تبادلوا نظرات وهمسات فيما بينهم وأجابوا محمداً ﷺ إلى دعوته وأسلموا ...

وعادوا إلى يثرب وذكروا لقومهم إسلامهم فوجدوهم مثلهم قلوباً متلهفة للإسلام ونفوسا مشتاقة للهدى .

ولم تبق دار من ديار يثرب إلا وفيها ذكر النبى الذى أطَلَّ زمانه وأنه هو محمد ﷺ الذى تتوعد به اليهود عرب يثرب فلماذا لا يكون للعرب السبق إلى اتباعه قبل اليهود .... ؟

وجاءَ موعد الحج وموسمه وقدم من يثرب اثنا عشر رجلا التقوا بالنبى ﷺ وبايعوه بيعة العقبة الأولى وفيها :

بايعوه على ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف فإن وفَّى ذلك فله الجنة .

وأرسل محمد ﷺ معهم مصعب بن عُمَيْر يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين .

هذه هى مقدمة غزوة الرضا والاقتناع لعرب يثرب .

غزوة وحلف عام ٦٢٢ ميلادية :

فى سنة ٦٢٢ ميلادية كانت البعثة الإسلامية قد مر عليها ثلاث عشر سنة وأراد محمد ﷺ أن يغير مسار الدعوة وأن يبدل السكون حركة ، وأن يجعل من أساليب الرفق والهوادة التى يعمل فى إطارها دفقاً روحيًا يغزو به قلوب هؤلاءِ الذين يقبلون على دعوته عن طيب خاطر ، وأن يجعل من ألوان التضحية والألم التى ضحّى بها وتحملها معه المسلمون الأوائل نافذة إعلام عن قدسية رسالته .

وقرر وصمم فيما بينه وبين نفسه أن تكون يثرب ملاذا يلوذ به المسلمون بديلا عن الحبشة .

وأن تكون يثرب منارة تجتذب القلوب المتفتحة وحِمًى وأمنًا للدعوة الإسلامية .

ولما قَدِم وفْدُ يثربَ فى العام التالى لبيعة العقبة الأولى اتصل محمد ﷺ بزعمائهم وأحس صدق سرائرهم وعرف منهم نقاء القلوب التواقة للإسلام فى يثرب وواعدهم على أن يلتقوا معه عند العقبة فى جوف الليل والتقوا وعاهدوا الرسول ﷺ وبايعوه بيعة العقبة الثانية وفيها :

بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويُسرنا ، ومَنْشَطِنا ومَكرَهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم .

فكيف سار حوار الغزوة ... ؟

أقبل محمد ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، الذى سبق وأن تعاهد مع بنى عبد المطلب وبنى هاشم أن يمنعوا محمداً أى أن يحموه ويمنعوا عنه أذى الغير .

وقدم عمه العباس معه برغم أنه مازال على دين قومه ... فلماذا ... ؟ لأنه أحس أن الأمر خطير وأن محمداً يعتزم التحالف مع أهل يثرب ، وأن هذا التحالف قد يجر إلى حرب ، ولهذا فإنه أراد أن يستوثق لمحمد ولقومه وحتى لا ينتهى هذا الحلف الجديد إلى كارثة يصلى نارها بنو هاشم وبنو عبد المطلب .

ولهذا فإن العباس بن عبد المطلب بادر الوفد اليثربى قائلا ... يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد عرفتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه .

وهو فى عز من قومه وَمَنعة فى بلده وقد أبى إلا الانحياز إليكم ،واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه (تحمونه) فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه .

هنا كبر فى نفس اليثربيين ما سمعوا وقالوا رداً على العباس :

سمعنا ما قلت ، ونظروا إلى محمد ﷺ قائلين :

تكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فرد محمد ﷺ بعد أن قرأ من القرآن ما شاءَ وقال :

« أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءَكم وأبناءَكم » .

هنا رد اليثربيون قائلين :

بايعناك يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر ، ولكن أحدهم قال :

يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا نحن قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ...

فكان رد الرسول العظيم ﷺ لهم :

« أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالتم »

كانت هذه الغزوة الروحية فتحاً لباب الرجاءِ فى حرية الدعوة إلى عقيدة الإسلام فى أرض جديدة وعند أنصار بايعوا محمداً على حرب الأحمر والأسود من الناس ونصرة الإسلام وجعل يثرب ملاذاً وأمناً للمهاجرين فى سبيل الله .

الغزوة الوجدانية لشبه الجزيرة كلها :

جاء موعد الهجرة وقضى محمد ﷺ سبعة أيام متتابعة من شهر يوليو حيث قيظ الصحراء زاده، وصحبة الصبر والثقة فى الله العظيم ، ومدده إيمانه بالحق الذى أُنزل عليه .

يقطع الصحراء راضيًا مرضيًا . يؤنسه أبو بكر ، ويقودهما دليلهما ، ولقد كانت هجرة الرسول العظيم ﷺ من مكة قاصداً المدينة غزوة روحية ووجدانية بلغت أخبارها الآفاق واهتزت لها كل القوى صاحبة السيادة فى الجزيرة العربية خاصة :

- كفار مكة ومشركوها .
- ويهود يثرب وأصحاب الجاد فيها .
- وأهل المدينة « يثرب » الذين أسلم أكثرهم .
- وفضلاً عن ذلك قبائل شبه الجزيرة التى ترقب ما يدور وتعلم أنها ليست بعيدة عن هذه الأحداث .

كفار مكة قلب الشرك :

لقد غزت هجرة محمد ﷺ قلب الشرك فى مكة فى الصميم .

فقريش كانت تحسب لهجرة النبى ﷺ إلى يثرب ألف حساب ، حيث كثر فيها المسلمون بدرجة جعلتهم فى صورة أصحاب اليد العليا ، ثم إن هجرة مسلمى مكة الذين ينضمون إلى مَنْ بالمدينة سوف يزيد المسلمين قوة فضلا عن أن انضمام محمد إليهم سوف يكمل بناء قوتهم خاصة مع ما يتمتع به من ثبات وحسن رأى وبُعد نظر .

لقد كانت غزوة فى قلب أمن قريش وأمانها ، لأنها امتلأت خشية من أن

تتعاظم قوة محمد فَيَدْهَمُ مكة أو يقطع عليها طريقها إلى الشام فتبور تجارتها أو يجوع أهل مكة ، مثلما فعلوا مع محمد وأجاعوه هو وأصحابه فى الشِّعْب وقاطعوه بالصحيفة التى علقوها فى جوف الكعبة .

لقد حقق خروج النبى ﴿ﷺ﴾ مهاجراً إلى يثرب أكبر غزو إيجابى ، وأضعف إرادة قريش على كبح جماح الدعوة المحمدية أو إمكانية القضاءِ عليها.

وأصبحت قوة محمد ﴿ﷺ﴾ ودعوته أمراً يعترف به الجميع ، وملأت الآفاق والأسماع ولم تعد شيئًا لا ينظر إليه ، بل أصبح مصير الكل مرتبطًا بها وانقسم الناس بين مؤيد ومناهض .

وحققت الهجرة غاية كبرى ألا وهى : الاعتراف بدعوة محمد وقوة شأنها.

يهود يثرب وأصحاب الجاه فيها :

استقبل اليهود محمداً ﴿ﷺ﴾ أحسن استقبال أملا فى كسب ودِّه وتوثيق صلته بهم ، فتقرب إليه كبراؤهم وارتبطوا معه برباط المودة كأهل كتاب موحدين وقد كانوا يظنون أن فى استطاعتهم استمالة محمد وإدخاله فى دينهم والاستعانة به فى تهويد جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أَجْلَتْ وشَتَّتَتْ اليهود .

ومحمد ﴿ﷺ﴾ استطاع أن يغزو انعزالهم وعنصريتهم بأن رد الود بالود والتقرب بالتقرب ، حتى أنه كان يصوم يوم صومهم ، وكانت قبلته فى الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ، وكان خُلُقه العظيم وتواضعه وحسن وفائه قد أورثه قوة السلطان على أهل يثرب ، وكانت قدرته ، وبُعْد نظره ومصداقيته واحترامه لحرية العقيدة هى أساس تفكيره وعماد نشر دعوته .

فلم يكن يفكر فى مُلْك أو مال أو تجارة ، وإنما كان كل همه توفير

الطمأنينة لكل من يتبع رسالته ويدخلها طوعاً ، وكان يرى أن توفير الطمأنينة لأتباعه وكفالة حرياتهم ككفالة حريات غيرهم فى العقيدة .

فالحرية وحدها هى دائمًا الكفيلة بانتصار الحق وتقدم البشرية نحو الكمال ومن يحارب الحرية يمكّن الباطل من الانتشار ، وكذلك ينشر جيوش الظلام لتقضى على شعلة النور المضيئة فى النفس البشرية .

وهذا هو منهج محمد ﷺ فى دعوته طوال ثلاثة عشر عامًا قضاها فى مكة ومنذ أن هاجر إلى يثرب كان جانحاً للسلم رافضاً استخدام القوة أو القتال .

محمد ﷺ يرفض الحرب :

نذكر عند بيعة العقبة الثانية أنه قد صاح أحد الناس ، لينبه قريشا لأمرهم وقال أهل يثرب لمحمد ﷺ : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منَى غداً بأسيافنا .

فكان جوابه : لم نُؤمر بذلك « أى لم نؤمر بالقتال » . كانت غزوته إلى وجدان اليهود وغيرهم من أصحاب العقائد قائمة على غاية واحدة هى كفالة حرية الرأى والعقيدة ، كفالة فى سبيلها وحدها أُحلَّ القتال ، ودفاعًا عنها أُبيح دفع المعتدى حتى لا يُفْتَن أحد عن دينه ، ولا يُظْلَم أحد بسبب عقيدته أو رأيه.

ولهذا كان اليهود - من بنى قينقاع الذين يقيمون داخل المدينة ، وبنى قريظه المقيمين فى فدك وبنى النضير القريبين منها ، وأيضًا يهود خيبر - قد أعجبهم هذا النهج من حرية العقيدة الذى ينهجه محمد ﷺ وكانوا يرون فيه نوعًا من المهادنة ومدخلاً إلى كسب محمد وإدخاله فى دينهم وتهويد الجزيرة العربية .

محمد ﷺ وأهل المدينة :

أما محمد ﷺ فكان يرى أن قدسية رسالته ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة هى الكفيلة بنشر دعوة الإسلام ، وكان يُفكر على خلاف اليهود وعلى خلاف المشركين فى المدينة الذين لم يُسلِمُوا من الأوس والخزرج ، وكانوا دائماً يحاولون الوقيعة بين المسلمين من الأوس والخزرج بإثارة النَّعرات العنصرية التى كانت قائمة بينهم قبل الإسلام ، وكان يفكر فى القضاء على عوامل البغضاء وكل شبهة تثير الفتَن فى المدينة .

لهذا فكَّر فى غزوة وجدانية تُظلل هذا الموطن الجديد وتحقق فيه الوحدة السياسية والنظامية بأسلوب فريد لم يسبقه إليه أحد ، فكان من الضرورى أن ينحى منحًا يحقق به الآتى :

تنظيم صفوف المسلمين ودعم وحدتهم والقضاء على كل شبهة أو وسيلة بها تثور العداوات القديمة ، ولهذا دعا إلى التآخى بين المهاجرين والأنصار، فكان كرم الأنصار عظيمًا ولكن قابله عفة المهاجرين ، وسعيهم إلى العمل والمثابرة لكسب العيش وحتى لا يكونوا عالة على الأنصار .

عهد الموادعة:

بقى لمحمد ﷺ أن يخوض بحكمته غزوة أُخرى يتحقق بها وحدة النظام السياسى فى يثرب وهذا متوقف على انضواء اليهود لهذا النظام وذاك التحالف .

وبرغم ما فى نفوس اليهود وتدبيرهم الخفى ومهادنتهم لمحمد فإنه ﷺ استطاع أن يحقق وَحْدَةَ النظام السياسى ليثرب وعاهد اليهود وواعدهم وأقرَّهم على دينهم وأمنَّهم على أموالهم واشترط عليهم وشرط لهم .

وكُتب الوثيقة السياسية الخطيرة بين المهاجرين والأنصار من جانب وبينهم وبين اليهود من جانب آخر وتضمنت ما معناه فيما يلى :

١. إن المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أُمةٌ واحدة من دون الناس .

٢. إن كل طائفة من المؤمنين والمسلمين تفُدى عانيها بالمعروف والعدل .

٣. إن على المؤمنين ألاَ يتركوا أحدهم مدينًا أو عائلاً لعياله ولا يستطيع إلاَّ وأعانوه وأعطود بالمعروف .

٤. إن المؤمنين المتقين على مَنْ بغى منهم أو مَن حاول الظلم أو الفساد بين المؤمنين ، وأنهم جميعًا على مَنْ ظلم حتى ولو كان ولد أحدهم .

٥. لا يقتل مؤمن مؤمنًا ثأرًا لكافر ، ولا يَنْصر كافراً على مؤمن .

٦. إنَّ من تبعَنا من يهود فإن له النصر والأسوة بغير ظلم .

٧. إن يهود بنى عوف أُمة مع المؤمنين، ولليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، ويهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جُشَم وبنى ثعلبة وبنى الأوس كبنى عوف سواء .

٨. إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

٩. إن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

١٠. إن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

١١. إن على اليهود أن ينفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين .

١٢. إن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

١٣. لا تجار قريش ولا مَنْ نَصَرَهَا .

١٤. إن بينهم النصر على من اعتدى على يثرب .

١٥ - إذا دعوا إلى صلح يصالحونه فإنهم يصالحونه .

١٦ - إن أى شجار أو أمر يخاف فساده بين أهل الصحيفة مردُّه إلى الله وإلى محمد رسول الله .

وهكذا استقرت أحوال الإسلام والمسلمين بيثرب وحَقَّقَتْ غزوة الإخاء ، وحرية العقيدة غاياتها فى إرساء قواعد العدل والإخاء بين العقائد ، ووُضع الأساس الأسمى للحضارة الجديدة الوليدة التى يقيمها محمد ﷺ .

مقدمة الغزوات الوجدانية الإسلامية لعقيدة اليهود :

بدأت معارك النفاق والجدل . ومعارك خفية من اليهود تجاه محمد ودعوته ، ذلك لأن محمداً بقدوته وأثره فى النفوس ومنهجه فى حرية العقيدة للجميع، والتزامه بالحكمة والموعظة الحسنة فى أمور الدعوة للإسلام جعل كثيراً من الناس تتأثر به وترى فيه وفى دعوته الصلاح ، ولهذا أقبل كثيرون على الإسلام . وزاد المسلمون بالمدينة شوكة وقوة .

عندئذ أحس اليهود بأن مطامعهم فى ضم محمد إلى دينهم وأن يزدادوا به على النصارى قوة وعدداً تتبدد أمام سلوك محمد وأثره على الناس ، وخططه التى يعمل فى إطارها ، ثم إن غزو محمد بسحر بيانه وسمو وجدانه قد بلغ مبلغًا كبيراً حتى إن دعوته تزداد انتشاراً ، وسلطانه الروحى يمتد حتى بلغ اليهود أنفسهم وها هو عبد الله بن سلام أحد كبار أحبارهم أسلم .

ولقد كَبُرَ ذلك عند اليهود أنفسهم وبدءوا فى الكيد لمحمد والتنكر لنبوَّته.

وعبد الله بن سلام العالم والحبرُ اليهودى الذى يعرف طبيعة اليهود ومعيارهم النفسى وانعزاليتهم ومفاهيمهم الخاطئة من حيث إنهم شعب الله المختار، أراد أن يكون إسلامه إسلام قلب غَزَتْه الحقيقة التى عرفها فى التوراة عن قدوم هذا النبى وصفاته ، وأن يؤكد أنه يهودى بحق ، فإذا كان أجداده لم

يؤمنوا بعيسى ﴿عليه السلام﴾ وكابروا وعاندوا الحق الذى هو مكتوب فى التوراة عن ابن مريم البتول ، فإنه لن يكون مكابراً مثلهم ، وينكر ما فى التوراة عن محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ وصفاته ، ذلك الذى رآه كما وُصِفَ فى التوراة ، واليهودية مرحلة من مراحل هذا الدين انتهت ووات منذ رسالة عيسى فلماذا المكابرة ..؟ فالأنبياء لا يجب الوقوف عند حد التعصب الأعمى لرسالاتهم أو التباكى على رسالة نبى دون آخر، والله الذى أرسل محمداً أرسله خاتمًا للأنبياءِ والمرسلين لعلمه أن النضج الروحى للإنسان قد اكتمل ولن يكون بأكثر مما هو كائن .. هذا ما يدور فى عقل وقلب كل حكيم وهذا دار فى فطرة عبد الله بن سلام ولهذا أسلم .

وعبد الله بن سَلاَم لعلمه بالتركيبة المعقدة للشخصية اليهودية ويعلم يقينًا طبائعهم وأساليبهم فى الطعن وتشويه الحقائق والجدل المضنى فى التهوين أو التهويل حول حقائق الأمور أراد أن يكشف هذه الطبائع للأمة الإسلامية وأجيالها، وعندما أسلم طلب من النبى ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ، أن يأتى باليهود الذين لا يعلمون بإسلامه وأن يسألهم عنه ، وأن يسمع رأيهم فيه وهم ليسوا على علم بإسلامه .

وفى نفس اللحظة رأيهم فى عبد الله بن سلام بعد أن علموا بإسلامه فماذا قالوا ... ؟

النبى ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ يسأل اليهود :

ما شأن عبد الله بن سلام ... ؟

اليهود : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا وهنا يخرج عبد الله بن سلام ، وقال : يا بنى إسرائيل لقد أسلمت ، وأدعوكم إلى الإسلام .

عندئذ شاهت الوجوه واسودت القلوب ، وفتحت الأفواه ، وغلى الدم فى العروق ، وتصاعدت زفرات الحسرة والأسى ، وقالوا عنه فى همس وصخب ما لم يقولوا من قبل من سب وإهانة .

وخرجوا يتوعدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يردوا الصاع صاعين .

الرد اليهودى على إسلام عبد الله بن سلام:

بدأ اليهود يعدون العدة للرد على الإسلام وعلى نبى الإسلام، وعُدتهم كانت بأسلحتهم التى يتفوَّقون فيها. ألا وهى أسلحة الجدل والمكْر واستخدام علم السابقين من الأنبياء والمرسلين الذين يتفوقون فيه من خلال التوراة.

ثم إنهم أيضًا دسُّوا من أحبارهم من أظهر إسلامه لينضم فى صفوف المسلمين لغاية أُخرى غير الإسلام.

وضموا إلى مؤامراتهم ضد الإسلام كل من لم يُسْلِمْ من الأوس والخروج فى حلف واحد غايته العداء للإسلام والمسلمين.

ومعنى هذا أنهم يعادون الإسلام ويعدون العدة لمحاصرته وإجهاض الدعوة ثم أنهم يهيئون لزرع بذور التشكيك فى قلوب المؤمنين من خلال هؤلاء اليهود الذين زعموا الإسلام وانضموا لصفوف المسلمين.

فالاستعداد كان على قدم وساق حول الدعوة، فضلاً عن محاولة التفجير الذاتى من خلال عناصرهم داخل حظيرة المسلمين، هؤلاءِ الذين برزت صورتهم فى أسئلتهم حينما يجادلون الرسول الكريم فيقولون:

يا رسول الله: إذا كان الله قد خلق فمن خلق الله ...؟

يرد الرسول:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

« سورة الإخلاص »

❖ ثم إن الرسول كان كلما تحدث بحقيقة تذكرها الكتب السماوية ويسأل اليهود الذين أظهروا الإسلام عنها فى التوراة ينكرون ويقولون: لا لم تأت فى التوراة رغبة منهم فى التشكيك فى صحة ما يقول محمد ﷺ.

* وأيضًا كانوا يجلسون فى المسجد ويلتصقون ببعضهم ويتحدثون وهم يخفضون أصواتهم .

وأمر الرسول العظيم بإخراجهم من المسجد وحذر من دسائسهم .

ولم يكتفوا بعد هذا الإخراج بمؤامراتهم وتدبيرهم ضد الإسلام ، بل سعوا للوقيعة بين المسلمين باستخدام رواسب الجاهلية والنزعات العرقية فالكل يعرف أن الأوس والخزرج كانوا دائمًا فى حروب وكانت آخر حروبهم واقعة «بُعَاث» وفى هذه الواقعة ذاق الفريقان مرارة الهزيمة وقتل من هنا وهناك الكثيرون حتى جاءَ الإسلام الذى أصلح ما بين الفريقين وأصبحو جميعاً أنصارًا للإسلام ولنبيه، ويوماً ما مرَ أحد عناصر الفِتْنَة اليهودية وهو «شاس بن قيس» ومعه يهودىٌ آخر على جماعة من الأوس والخزرج المسلمين ولم يعجبه ما بينهم من ود ورحمة. وأراد أن يشعل فتنة بين هؤلاءِ مستعينا بعصبية الجاهلية فأمر «شاس» فتاهُ أن ينتهز أية فرصة أو حدوث ثغرة فى الحديث ويعاير المجتمعين بيوم «بعاث» وَفَعَل . وما كاد حتى تغيرت الوجوه وتبدل الود جفاء ، والرحمة بين الأوس والخزرج إلى ملامح عداء ، وكادت تحدث فتنة تمتد من هذا الجمع إلى الجميع من الفئتين ، وكانت مقدمة العداء متجلية فى مناظرات فخر ومنازعات جدل تنتهى بالخصام الذى يتلوه مالا تحمد عقباه .

وبلغ المصطفى ﷺ ما حدث فخرج إلى المغرَّر بهم من الأوسيين والخزرجيين وذكَّرَهُم بنعمة الإسلام الذى ألف بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا .. ومازال بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضًا واستغفروا الله .

لم يقف اليهود عند حد هذه السخافات ولم يكفهم محاولتهم الوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأنصار أنفسهم ، ومحاولتهم التشكيك فى الإسلام لرد من أسلم إلى الشرك . ولكنهم أيضًا حاولوا فتنة الرسول ﷺ. فيومًا ذهب إليه ﷺ أحبارهم وقالوا له :

إنك تعرف منزلتنا ومقامنا بين اليهود ، وإن نحن اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين بعض قومنا من اليهود خصومة فإن تحكم لنا عندما نحتكم إليك فنتبعك ونؤمن بك هنا نزل فيهم قول الله تعالى :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

«سورة المائدة آية ٤٩ـ٥٠»

ولَمَّا لم يستطيعوا فتنة الرسول ﴿ﷺ﴾ فكروا فى مؤامرة جديدة يريحون بها أنفسهم من محمد ودعوته وأن يقنعوا الرسول بالجلاءِ عن المدينة فقالوا له :

إن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعًا إلى بيت المقدس وكان به مقامهم وإنه إن كان بحق رسول من عند الله فيجب عليه أن يجذو حذوهم وأن يعتبر مقدمه إلى يثرب مقدمة ومرحلة من مراحل الانتهاءِ إلى بيت المقدس ومقامًا وسطًا فى هجرته بين مكة وبيت المقدس .

وفهم الرسول قصدهم ولم يستمع إليهم ، ولم يدم بقاؤه بالمدينة كثيراً حتى أوحى الله إليه أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل. فقال تعالى :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

«سورة البقرة آية ١٤٤»

فكانت هذه النهاية مخيبة لآمال اليهود فحاولوا معه مرة أخرى أن يرجع إلى بيت المقدس قبلتهم وأنهم سيتبعونه لو عاد إليها إلاَّ أن الله أنزل عليه الآيات :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

«سورة البقرة الآية ١٤٢»

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾

«سورة البقرة من الآية ١٤٣»

وفشلت محاولات الجدل والمكر والتضليل اليهودى تجاه المسلمين وبدأت محاولات أُخرى للكيد والاعتداء والخيانة .

الغزوة الوجدانية لعلماء النصارى واليهود :

لم يكن الرسول الكريم قد مضى عليه أكثر من سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة ، وكان قد أُوحى إليه يومئذ أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل ، وفى هذا التوقيت وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عددهم ستون راكبًا ، وكان من هذا الوفد علماء وقسيسون ورهبان درسوا كتب النصرانية واليهودية وحسن علمهم ؛ ومنهم من شرَّفه ملوك الروم من أهل النصرانية ومَوَّلوه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه من الكرامات .

وجاءَ علماءُ النصرانية بعد أن سمعوا عن الخلاف الشديد بين محمد واليهود طامعين فى تأجيج نيران هذه العداوة ليريحوا النصرانية المتاخمة فى الشام وفى اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب .

وسرعان ما علم اليهود مقدم علماء النصرانية لمقابلة محمد حتى أسرعوا فى تشكيل وفد من علمائهم وأحبارهم ليشاركوا فى هذا الحدث .

واجتمعت شريعتا موسى وعيسى بالنبى الخاتم وصاحب الشريعة الغراء ، وبدأت الملحمة الكلامية بين اليهودية والمسيحية والإسلام .

أما اليهود فقالوا : إن عزيراً بن الله وقالوا إن عيسى ومحمداً وما أنزل عليهما ليس من عند الله ، وأن النبوة فى بنى إسرائيل ولم تخرج منهم .

وأما النصارى فقالوا وفق مذاهبهم : إن المسيح بن الله ، وأن الله ثالوث مجسد فى الأب والابن والروح القدس ، وإن ما دون ذلك باطل وافتراء .

وأما محمد ﷺ الذى دعا إلى التوحيد ، وإلى الوحدة الروحية التى بها ينتظم العالم من أزله إلى أبده دعاهم إلى عبادة الله وحده .

وأكد لهم أن كتبهم جاءَت بما يُقرُّ لَهُ بالنبوة ، وأن ما يدعو إليه لا يختلف فى شىءٍ عمَّا جاءَ به الرسل السابقون .

وهكذا جاءَت الملحمة الكلامية معبرة عن هوى النصارى واليهود ، وجاءَت بالحق على لسان محمد الذى لا ينطق عن الهوى ، جاءَت الملحمة فى صورة مؤتمر للشرائع الثلاث التى كانت ومازالت تتجاذب مصائر العالم وستظل حتى يرث الله الأرض وما عليها .

لقد كانت الملحمة معبرة عن غاية يعتقد بها ويعتنقها كل من الأطراف الثلاثة.

إلا أن وراء غاية النصارى واليهود مطامع وأهواءَ ومآرب لأصحاب الجاه والسلطان والسيادة الدينية ، أما غاية محمد فلقد كانت غاية روحية إنسانية

بحتة ويتجلى ذلك فى دعوته الخالدة التى برزت فى الآيات الكريمة التى احتكم إليها :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

« سورة آل عمران ، الآية ٦٤ »

ويلوذ الجميع بالصمت المطبق فليس هناك رد . وليس هناك قول بعد هذا القول الفصل .

فكيف لا يعبدون إلا الله ... ؟

ولا يشركون به شيئًا ...

ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله ...

فهذه الدعوة لا تعيها إلاَّ الروح المخلصة الصادقة ولا تنكرها العقول الراجحة التى كرمت بالإدراك الواعى والعاطفة السامية .

ولكن أين هؤلاء وأولئك الضعفاء المرهونون بسلطان الدنيا وسلطان الغرور وقيود المال والجاه والألقاب والرتب الكاذبة ... ؟

إنهم أسرى الوهم الكاذب ، والأطماع الزائلة .

وها هو أبو حارثة أكثر نصارى نجران علماً ومعرفة يهمس إلى رفيق له وهما مازالا جالسين فى هذه الملحمة الكلامية ويقول له : إن ما يقوله محمد حق وصدق ، فيرد هذا الرفيق وهو يهمس أيضاً :

إذن فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ... ؟

فيجيب : يمنعنى من الإيمان به ما صنع بنا هؤلاء القوم - يقصد سادة نجران وملوك الروم الذين أوفدوهم إلى محمد - فلقد جعلونا أشراف القوم وأكرمونا بالعطايا ، ومولونا بما نحتاج من أموال ...

فلو فعلت نزعوا منّا كل شيء ...

هذه الخيارات التى طرحها أبو حارثة ، تمثل دور علماء النصرانية واليهودية وتعتيمهم على حقائق الرسالة المحمدية لما لها من أثر فى إنهاء سيادتهم ومصالحهم ومواقعهم السيادية التى ينْعمون بها .

ولكن كان من الضرورى أن ينتهى هذا المؤتمر بإقرار تتناقله الأجيال ألا وهو الاعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق وأن محمداً هو خاتم الأنبياء حتى وإن كان هذا الاعتراف فى صورة اعتراف صامت أو انسحاب من المجادلة ، هنا وبعد أن طرح الرسول مبادرته بآياته الكريمة ، دعا إلى الملاعنة والمباهلة ، ولتكون لعنة الله على الكافرين .

وفى هذه الحالة تلعب الفطرة دوراً هامًا حيث تستشعر الحق وإن لم تُعْلِن عنه أو تبوح به ، وعندئذ تَشَاور النصارى وأعلنوا أنهم رأوا ألاَّ يلاعنوا محمداً ﷺ وأن يرجعوا على دينهم ، وطلبوا من الرسول أن يبعث معهم رجلاً يحكم بينهم فى أشياء اختلفوا عليها .

فبعث الرسول ﷺ معهم أبا عُبَيْدَة بن الجراح .. ولقد كان هذا الطلب اعترافًا بنقص علمهم ونقص شريعتهم ، واعترافًا بعدالة محمد وشمول رسالته .

الباب الثالث

آداب ورموز الأخلاق الإسلامية وآثارها الوجدانية

الفصل الأول :

المعيار الوجدانى للشخصية الإسلامية

الفصل الثانى :

القيم الجمالية والإقناعية التى يجب أن يتميز بها المسلم .

الفصل الثالث :

ميثاق أخلاق الأمة الإسلامية

أضاءت شعلة الكلمات الخالدة : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » أبهاء النفس البدوية الجامدة ، وأحالت عتمتها إلى أنوار إيمانية دافقة قادرة على دعم رسالة الإسلام وحمل رايتها.

وجملت رموز الوصف الإلهى لنبيه : «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»

وصَقَلَتْ فِطرة أبناء الجاهلية ، لتكشف عن جوهر أصيل قادر على الاقتداءِ بالنبى الأسوة الحسنة ، والتأدب بأدبه والتحلى بخلقه ذلك الأدب الذى صقل المنظومة الوجدانية للأمة الإسلامية وجعلها قادرة على أداء الرسالة وحمل الأمانة .

وجاءَ المنهج النبوى لمحمد ﷺ فى أدائه لرسالته فى مراحلها الأولى مُعَبِّرا عن نمط فريد من الرحمة والصبر ومقابلة السيئة بالحسنة والدعوة بالهداية لقومه .

وأثمر هذا المنهج عن أُسلوب فريد يغزو الملكات ويروض الكوامن ويُسْمِى وجدان الفرد والجماعة والإنسانية .

وإضَافة إلى ذلك فلقد وضع إطاراً لمبادئ الإيمان ، وآداباً وحدوداً للعقل المؤمن ، يجب أن يتجمل بها ويَلتَزِمَ بحدودها .

وأيضًا أرسى قيمًا جمالية وإقناعية تتجلى فى آداب التعامل مع غير المسلمين مناظرة وجدالاً ، تلك القيم التى صَاغَتْ ووضعت ميثاقًا لأخلاق الأمة الإسلامية وأزكتْ مقومات ترتكز عليها الشخصية الإسلامية وترتقى بها .

وتوضح الفصول الآتية تلك الآداب ورموز الأخلاق ومعايير الارتقاء بقيم الإنسان وفطرته كمحصلة للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التى استطاعت استثمار العصبية القبلية بين العرب والقبائل وتحويل قوة هذه العصبية المدمرة إلى قوة نافعة متكاملة ، فلقد صنعت الغزوات الوجدانية

القائمة على منهج الرسول ﷺ شخصية إسلامية متميزة لها معيارها الوجدانى الخاص بها ، ثم إنه أضفى على هذه الشخصية قيما جمالية واقتناعية ترتقى بسلوكها ، وأيضا وضع لها أسسًا ومقومات تقوم عليها حضارتها .

الفصل الأول

المعيار الوجدانى للشخصية الإسلامية

يتميز المسلم الحق بسمات فى شخصيته لا تقارن بغيرها ، وقسمات فى ملامحه الإدراكية والسلوكية تختلف تمامًا عن نظيره من أصحاب العقائد الزائفة الأخرى .

وذلك لأن معياره الوجدانى قائم على وعى إيمانى يتسامى تعبيراً ووصفًا وقولاً وفعلاً . وهذا المعيار له رموزه الإيمانية المعبرة عن عمق الوعى الإيمانى ويتجلى المعيار الوجدانى للمسلم فى رسوخ المعايير الآتية فى كينونته :

١ ـ مبادئ الإيمان :

إن الدين ليس شعارا أو رمزاً يدون فى وثيقة الميلاد ولكن الدين المعاملة مع النفس ومع الخالق ومع الخَلْق جميعًا ، والعبد الذى يرى فى الإيمان مدخلاً إلى أسباب الآخرة مفتقر إلى أسباب الدنيا فقد آثر وفضل ثواب الله فَنِعْم الثواب والجزاء ، أما الذى أخذ بأسباب الدنيا واستمتع بما فيها فقد اكتفى بزاد الدنيا واستغنى عن زاد الآخرة .

والفارق هنا واضح وبَيِّن .

فالمؤمن فضلاً عن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر اتخذ سبيله فى الإيمان طمعًا فى الآخرة لهذا فقد عرف :

علامات الإيمان الصادق ، وعرف أن الحياة الدنيا متاع الغرور ، وعرف وقارن بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وعرف عاقبة المعرضين عن أحكام

الله غروراً وكبراً ، وعرف عاقبة الكفر بعد الإيمان ، وعرف قيمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٢ـ آداب وحدود عقل المؤمن :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

« سورة آل عمران من الآية ١/٤ »

يردُ القرآن رداً بليغاً على كل من يجادل فى وحدانية الله ويجادل فى أمور الغيب ، وتذخر سورة آل عمران بقيم جمالية تُعَمِّر النفوس ، وتوضّح أبرز معايير الإيمان القوى ، وكما تتجلى صور المقارنة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، تأتى أيضا إيضاحات لكل ما يهم الوجدان المسلم خاصة تلك التى تجيب على التساؤلات الآتية :

ما علامات الإيمان الصادق ... ؟

وما الآيات ذات الدلالات التى لا تقبل التأويل ... ؟

وما الآيات المتشابهات التى يحدث الاختلاف حولها ؟

وما عاقبة الاغترار بالمال ... ؟

وما عاقبة الذين يَنْهمون فى الشهوات ... ؟

وكيف تكون عاقبة المعرضين عن أحكام الله غروراً وكبراً ... ؟

وهل يقبل من المسلم موالاة الكافرين ، أو الاعتزاز بصلته بهم ... ؟

وما العبرة من قصص الأنبياء ... ؟

وما ملَّة سيدنا إبراهيم وديانته ... ؟

وما طبائع أهل الكتب وسماتهم ... ؟

وما عقوبة الكفر بعد الإيمان ... ؟

وماذا عن غزوات الإسلام الأولى وأسباب النصر والهزيمة ... ؟

وجاءت سورة آل عمران بإجابات دقيقة المعنى والدلالة لتخرس ألسنة المشككين فى وحدانية الله فى كل عصر وزمان .

وتفضح المتاجرين بالأديان ، وتؤكد أن دين الله واحد منذ أن خلق الله آدم وحتى يرث الله الأرض وما عليها، وكذلك تعمق المعانى الإيمانية الآتية حول:

(أ) الغايات :

إن أسرار حركة الكون وأسبابه يهيئها الله لعباده أجمعين منَ آمن ومنَ كفر .

وإن الذى يأخذ بالأسباب الدنيوية يكتب له النجاح سواء أكان مؤمناً أم كافراً والفارق فى حصاد كل إنسان هو عند الرحيل من الدنيا إلى دار البقاء.

(ب) التوحيد والتأويل :

التوحيد هو أساس الدين والتأكيد على أن الله لا معبود بحق فى الوجود إلا هو ، فليس فى الوجود صاحب قدرة حقيقية على النفوس يبعثها على تعظيمه ، والخضوع له قهراً إلا هو ، فبيده منح ومنع الخير ودفع الضَّر .

فهو الحى الدائم الحياة ، القيوم على خلقه بالتدبير والتصريف وقامت به السموات والأرض .

ونَزَّل الكتب السماوية للتأكد على صلاح وهدى الخلق جميعا وفى هذه الكتب ما يتناسب مع كل الأجيال وكل الأزمان . وأصحاب القلوب القوية يقولون هذا من عند ربنا ويتأدبون مع الله فى الجدل طاعة وإيماناً وفى التأويل ارتكازاً على قوله تعالى :

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

«سورة الإسراء ، من الآية ٨٥»

٣ـ آداب الايمان بالغيب :

القران الكريم يهذب المؤمنين . ويعلمهم أدب التفكير فى الغيب .

فإذا كان القرآن يَذْكُر أنباءً وأخباراً وحقائق تحار فيها العقول خاصة ما يتعلق بالغيب فإن هذا الغيب يمثل الخيارات بين العقل المصقول بالإيمان والعقل المخدوع بالضلالات . وبين الفطرة المصبوغة بصبغة الله وبين الفطرة التى استطاع الشيطان أن يشوه نقاءها ويتمكن من جوهرها فغطاها بالصدأ والتراب.

إن الغيب امتحان لعمق الإيمان ، لأنه يكفى الإنسان المؤمن أن يؤمن بالله وما دام مؤمنا به فلابد أن يصدق رسوله ولابد أن يعرف أن الرسل قد جاءوا بكتب هى شريعتهم التى أرسلهم الله لتبليغها ، وأن يؤمن بالملائكة ، وأن يؤمن بالغيب لأن الله بعظمته ورحمته حجبها عنا لعلمه أن عقولنا لا تستطيع أن تدرك هذا الغيب، أو لأن العلم بها لا يفيد .

إذا فالإيمان بالغيب سمة من سمات الإنسان المؤمن بالقلب ، المؤمن يكفيه أن يعلم أن هذه الغيبيات من عند الله وكل ما هو من عند الله حق وصدق ، ولا يجب المجادلة فيه أو الخروج عن الأدب الفكرى تطاولا فيما ليس للإنسان به علم . فلا يصح أن نقول : أرنا الله لنؤمن .

فالإيمان بالغيب ، هو أعظم درجات الإيمان .

فأركان الدين إحساس فطرى قبل كونه نظرية لها برهان .

والإيمان حالة قلبية قبل أن تكون ظاهرة سلوكية وهناك أمور غيبية ترتبط بالإنسان ذاته .

فالإنسان لا يجب أن يذهب بعيدا وعليه أن يلحظ أن هناك غيبيات عن يمينه ويساره ، وهناك كينونته بما فيها من هواية التردد والمعاندة وفى نفس ذاتها صفات الجدل .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

«سورة سورة الكهف ، من الآية ٥٤»

ومن هذه الغيبيات :

(أ) القرين :

وأكثر الغيبيات صعوبة على الفهم ذلك القرين الشيطانى ، ويقول عنه رب العزة :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

«سورة الأعراف ، من الآية ٢٧»

وهنا غيب صعب إدراكه أو تصورد بحق ، فهذا القرين الشيطانى يأتى يوم القيامة حينما ينكشف لكل واحد منا قرينه الذى هو دائما من الجن ، والذى كانت وظيفته طول الحياة الإغراء والوسوسة ، وتحسين الفواحش وتجميل المنكرات .

وحينما ينكشف ذلك الذى كان غيبا ويشاهده الإنسان يوم القيامة فإن الإنسان الذى ضعف إيمانه بالغيب يقول متحسرا :

﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾

«سورة الزخرف ، الآية ٣٨»

ولهذا يتميز المؤمن بالغيب عن غيره الذى جادل ، وتشكك وعاند ، وعصى، بأنه آمن بأن هناك قريناً يوسوس له فعصاه ، واستعاذ بالله منه .

فعلينا أن نؤمن بالغيب إذا كان لنا قلب وإحساس وفطرة وروح وإيمان بغيبيات عالم الملك والملكوت .

والإيمان بالغيب أيضاً يؤكد للإنسان أنه لم يترك لقرين الشر من الجن فقط، وإنما هناك قرين آخر من الملائكة . وهذا القرين الملائكى يوجه للخير، ويحمل للصلاح ويهئ للتقوى ويوم القيامة يشهد على الإنسان ويقول على صاحبه :

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

«سورة ق ، الآية ٢٣»

(ب) الملائكة :

ثم إن الغيبيات تتضمن الملائكة الكتَبَةَ الحفظة المسخرة لخدمة الإنسان ولا يراها عن يمينه وعن يساره .

وهناك ملائكة تحمل العرش ، وتوضح الغيبيات هنا أعظم رموز وطلاسم الغيب حول عرش الرحمن :

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾

«سورة الحاقة ، الآية ١٧»

فالغيبيات حول ملائكة العرش ، ومَنْ هم الثمانية الذين يحملون العرش؟ وفى أى زاوية فكرية يمكن الاهتداء أو معرفة شىء عن هذا الغيب ؟

إذا ليس هناك أعظم من الإيمان بالغيب دون البحث فى طلاسمة لأن الغيب يخص الرحمن وحده جل شأنه .

والغيبيات عن الملائكة تحار فيها العقول .

وما بلغنا عن جبريل ﴿عليه السلام﴾ مثار دهشة وتعجب من عظمة الخالق ، فيروى عن النبى المصطفى أنه رآه مرتين على صورته الملائكية ، وهو يسد الأفق ويملأ جنبات السماء .

(جـ) العرش :

وأيضاً هناك غيب عن العرش :

فما هو عرش ربك ... ؟

هل يستطيع علماء الأرض تقديم إجابة ... ؟

والغيب حول كرسى الله:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

«سورة البقرة ، من الآية ٢٥٥»

فما كيفية هذا الكرسى وهو يسع السموات والأرض ... ؟

وما بالنا بالعرش ذاته ... ؟

وما اتساعه ... ؟

(د) جبريل :

وتأتى آيات القرآن محددة حقيقة جبريل :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

« سورة النجم ، الآيتان ٤-٥ »

وكذلك :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾

« سورة التكوير ، الآيتان ١٩-٢٠ »

فجبريل فى هاتين الآيتين السابقتين شديد القوى ، وأيضاً ذو قوة عند ذى العرش مكين ، فلقد حدد الله مكانته وقوته ، ولكنه تركنا فى غيب من أمور أخرى لا يجب أن نجادل فيها ، فهى جزء من الغيب الذى احتجب عنا ومثل جبريل الملائكة جميعاً .

فلقد أعلمنا الله أنهم ليسوا بالذكور ولا بالإناث ولا يموتون ولا يتناسلون .

ثم إنهم ليسوا بنات الله ولا أبناءه ، بل مجرد مخلوقات لله ، يعيشون فى طاعة الله وعبادته ، والتسبيح له ، ولا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

(هـ) الجن :

ومن الغيبيات ما يتعلق بالجن ، فمنهم الصالحون ومنهم الكفرة ، ومنهم الأخيار ، ومنهم الأشرار ، ولكنهم ذكور وإناث يتناسلون ، ولهم قدرة على الاستماع إلى الإنس ، والوسوسة لهم ، ومنهم المردة الذين يتطاولون فيتسمعون لما يجرى فى الملأ الأعلى أملاً فى معرفة الغيب ، إلا أن الله جعل للملأ الأعلى حرساً وشهباً يقذفون بهؤلاء المردة ويحرقونهم .

(و) السحر :

وينص القرآن الكريم على أن السحر جاء إلى الأرض بفعل ملكين كُلِّفا بذلك ، هما ، هاروت وماروت ولقد جاءا إلى الأرض فى شكل بشر ، ويقص القرآن الكريم هذه القصة فى محكم آياته :

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ ﴾

«سورة البقرة ، من الآية ١٠٢»

ولقد أراد الله بنزول السحر على أيدى هاروت وماروت أن تكون أسرار السحر فتنة للناس ، واختباراً لقوة الإيمان .

فامتحان النفس البشرية بالشر قبل الخير لتحدث التفاعلات الذاتية فى كينونة الإنسان فترقى وتصفو عقيدته ، ويسمو إلى رب الأسباب .

ذلك هو شأن القوى الإيمان ، والسحر أمر معترف به ومنصوص عليه فى القرآن فلقد ذكر مرة فى قصة موسى وفرعون حينما جلب فرعون السحرة ، وألقوا بحبالهم وعصيهم فخيل لهم أنها حيات تسعى .

ثم جاء السحر مرة أخرى عندما صنع السامرى لليهود عجلا جسداً من ذهب يحدث خواراً وأصواتا .

ثم جاء السحر مرة ثالثة فى القرآن عن النفاثات فى العقد .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾

«سورة الفلق ، الآيات من ١-٤»

والسحر علم قديم انتهى ، أما ما نراه اليوم ويخيل إلينا أنه سحر فهو البقية الباقية من آثار السحر وما تبقى لنا من رموزه التى لا تضر ولا تنفع اللهم إلا ما نسمعه من شعوذة ودجل وادعاءات ومزاعم ، والمخطوطات القديمة التى تضمنت علم السحر اندثرت ولم تبق إلا القصاصات المبتورة التى يختلط فيها العلم بالخرافة .

(ز) الروح :

ومن الغيبيات أيضا أمر الروح :

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾

«سورة الإسراء ، من الآية ٨٥»

وما بين أرواح الأحياء وأرواح الأموات برزخ :

﴿ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

«سورة المؤمنون ، من الآية ١٠٠»

فالأرواح بعد الموت تبدأ حياة أخرى ، وتحكمها قوانين ونواميس إلهية غير التى تحكم الحياة الدنيا ، ولأن القوانين هنا غير التى هناك فلا يمكن

أن يتحقق الالتقاء ، والبرزخ هو مضمون عدم الالتقاء أبداً .

والقرآن الكريم يوصينا أن نتأدب فى الجدل حول الغيبيات لأنها أمور تخص رب العزة ، والغيبيات وأسرارها أمور وضحها الله لنا لنرتقى بالفكر ، ونتطلع بالبحث والدراسة فى تنقية المعارف وتهذيب السلوك والتأدب مع بعضنا البعض فى أمور المعرفة المتاحة ، وأن يكون كل تصرف محكوما بما بلغناه من علم دون مكابرة أو ادعاء .

(ط) اليوم الآخر (يوم القيامة) :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ
ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

«سورة آل عمران : الآية ٩ »

ومن الأمور الغيبية أيضا اليوم الآخر أو الساعة ، وهذا اليوم خص الله به نفسه علما وتوقيتا ، وكتبه على جميع الخلق ، والعلم به محجوب عن الكل ، ولكن الله يحدد مقدمات وعلامات لقرب هذ اليوم ، فيقول عز وجل :

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

«سورة الدخان ، الآيتان ١٠ ، ١١»

ومن العلامات القرآنية :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾

«سورة القمر ، الآية ١»

ويأتى مثل لهذا فى رؤيا يوحنا .

ففى الإصحاح الثامن يقول :

«ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون عظيم فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر »

ثم إن هذا الدخان لا يقتل . وإنما جاء للعذاب ، فمنه يعذب الناس خمسة أشهر ومن هذا العذاب سوف يطلب الناس الموت فلا يجدونه ، ويرغبون فى أن يموتوا فيهرب الموت منهم .

هذه علامات فى نبوءة يوحنا عن يوم القيامة وعلامات قربه إلا أن الغيبيات حول توقيته علمها عن ربى .

ثم ينبه القرآن الكريم إلى أنه مع اقتراب الساعة سوف تخرج دابة من الأرض تتكلم وتنبه وتوجه إلى طريق الهداية .

ولكن هل يصح إيمان من كان عاصيًا وآمن مع ظهور هذه العلامة ، أو عندما يسمع كلام الدابة ؟

لا يصح ولن يكون إيمانا ، لأنه إيمان بخوف ، وإيمان فى قهر ورعب وليس إيمانا باختيار ومفاضلة فلم يعد أمام الإنسان خيار فأمامه العذاب وأمامه دابة تَتَكَلَّم وتُنْذِر .

إذن مرحلة الاختيار التى أودعها الله أمانة فى العقل البشرى قد تعطلت.

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾

«سورة النمل ، من الآية ٨٢»

فالإيمان بالغيب هو الإيمان الحقيقى بدون دليل أو علامات واجتياز امتحان الإيمان عن ثقة فى ذات الله وامتثال لأوامره حول الغيب وحول الساعة هو قمة النجاح العقائدى والتفوق الفطرى .

(ح) قيام الساعة :

وعن موعد قيام الساعة فإن الله يعطى دلالة مرئية ملحوظة لكل من سيعايش زمن قيامها فيقول جلَّ وعلا :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾

«سورة يونس ، من الآية ٢٤»

فالساعة آتية يوم تبلغ الأرض قمة الحضارة ويصل الإنسان إلى مرتبة متقدمة من التفوق الفكرى والعقلى ، فيتمكن من أن يتحكم فى كل شىء ، ويظن أنه قادر على كل شىء ، يسخر الطبيعة لرفاهيته ، ويبدع فى كل الأمور لخدمة متعه وأهوائه ، ويصنع ما يريد لما يريد .

وتصبح كل الأمور الدنيوية فى متناول يديه ، ويسخر القوانين الدنيوية كلها فليس هناك قوانين منحها الله لخدمة البشر لغزاً أو سراً ، كل شىء قد اكتشف، وكل المستور قد بان ، وكل الألغاز قد حُلَّتْ .

هنا يتباهى الإنسان بما حققه فى هذه الحياة من زخرف وزينة ، وظن أنه بفعل هذا بات قادراً على كل شىء ، ولأن القادر الأوحد هو الله .

فهنا تقف قدرته أمام مزاعم البشر ، وينفخ فى الصور وتأتى العلامات الكبرى عن يوم القيامة :

- فالشمس تُخْسَفُ .
- والقمر يُكسَفُ .
- والجبال تُنْسف .
- والنجوم تنكدر .
- والبحار تتفجر .
- والأرض تتزلزل .

- وكل الأحياء فى الأرض والسماء تصعق إلا مَن شاء له الله أن يشهد هذا اليوم الفصل .

٤ - تأويل القرآن :

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن المؤمن القوى ، أو الشخصية الإسلامية المتأدبة مع كلام الرحمن الباحثة فيه يجب أن تعلم أن القرآن برموزه يُحَدِّث كل الأجناس ، وكل الأزمان فلو أن الله فتح كنوز المعارف حول مضمون القرآن وإعجازه لزمن معين ولخلق معين فلن تجد الأجيال التالية ولا الأزمنة المستقبلة ما تفكر فيه ، وما تأخذ منه تفاعلاتها الفكرية والروحية والوجدانية، ومن هنا فالله العالم بأمور خلقه قدَّر مفاتيح المعرفة بمقدار لتستمر حركة الكون وعمران الوجود .

ولهذا فلا يجب أن نتفلسف أو أن نستعجل الحكمة المستقبلية وعلينا أن نستقبل ما نفهمه من القرآن فى إيمان مطلق بأنه فوق كل ذى علم عليم :

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

«سورة الإسراء ، من الآية ٨٥»

ثم إن تأويل القرآن أمر يجب الاحتراس عنده ، واستخدام الفطرة والعقل عند الاقتراب منه :

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾

«سورة آل عمران ، من الآية ٧»

وما علينا إلا الاجتهاد سعيا وراء التزود بخير زاد وهو التقوى ، والأخذ بمدلولات ومعانى القرآن المحكمة التى أدت معطياتها للسابقين لنا ولزماننا، ونعظم الله وغيبه حول المدلولات الغيبية التى تعد طلاسم لنا ، ولن يكتشف أسرارها إلا الأجيال القادمة بعدنا وبإذن من الله .

الفصل الثانى

القيم الجمالية والإقناعية

التى يجب أن يتميز بها المسلم

١ ـ آداب الجدال مع غير المسلمين :

يَضَع الإسلام منهج التعايش المثالى بين المسلمين ويضع الآداب السامية للحوار والتفاعل بين أعضاء الأسرة الإسلامية . وبالمثل يضع دستور التعامل والتفاعل مع الجماعة الإنسانية غير المسلمة ومثالنا فى ذلك عندما قدم وفد من نصارى نجران للقاء الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ وكان عددهم ستين شخصا وعلى رأسهم ملكهم ووزيره الأول وحبرهم أى قسيسهم .

وقالوا : نحن جئناك نناظرك فى أمور النصرانية ، فهل ترد على علمائنا ونرد عليك ..؟

فأجابهم ﷺ بالإيجاب . فقال أحدهم :

عيسى بن مريم إله ، لأنه يحيى الموتى .

وقال الثانى : عيسى بن مريم بن الله إذ لم يكن له أب .

وقال الثالث : عيسى بن مريم ثالث ثلاثة .

ورد عليهم النبى ﷺ بأن عيسى نبى مرسل ، وليس إلهًا، وأنه ليس ابنًا لله وليس ثالث ثلاثة ، وأن الله أحد صمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد إلا أنهم لم يقتنعوا .

فطلب منهم الرسول المباهلة .

وتعنى المباهلة أن يجتمع النبى وآل بيته الكرام ويجتمع وفد نجران جميعهم ، ويدعو الرسول العظيم بأن تكون لعنة الله على الكاذبين ، ويأتى هلاك الطرف المضلل الآثم الذى يكابر ويعاند .

إن المباهلة تمثل تعبيراً عقائدياً عن صدق العقيدة لمن هو أقوى يقينا وأصدق شريعة ، وهنا تلعب الفطرة الأصيلة التى أوجدها الله فى نفوس خلقه دورها فإن صمامات الإيمان الكامنة فى وجدان الإنسان تدفعه إلى التخوف عندما يستشعر أنه ضال مكابر .

وهكذا استشعر وفد نجران ضلالهم ، وقالوا للرسول لا نباهل ، لأنه ما من قوم باهلوا نبيا إلا وهلكوا ، وكان تراجعهم دليلاً على إيمانهم بصدق النبى وأنه مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل . (الكتاب المقدس) .

الرد القرآنى على المشركين :

ويرد القرآن العظيم فى سورة آل عمران وبما يزيد على الثمانين آية بالحجج القاطعة التى تبرهن بالحق والصدق الذى جاء من عند الله لتصحيح العقائد كى تكون هذه الحجج قيماً جمالية تصقل وجدان المؤمن على مر العصور والأزمان :

- إن الله وحده هو الحى من الأزل إلى الأبد .
- وهو إله كل العالمين وكل المخلوقات وهو القيوم على كل الخلق والأكوان.
- وهو الذى يأمر فيطاع ويقدِّر ولا قدر لغيره .
- وهو الذى أنزل هذا القرآن فيه حقيقة الوجود وخيره وفيه كل الصدق عن الأزمان التى ولَّت والأزمان التى ستأتى .

❖ والله هو الذى أنزل التوراة على موسى هداية لبنى إسرائيل تلك التوراة التى تعنى بالعبرية الشريعة والتى تتكون - بتقسيم اليهود - من خمسة أسفار :

(سفر التكوين . سفر الخروج - سفر الأخبار - سفر العدد - سفر الثنية) .

❖ والله هو الذى أنزل الإنجيل على عيسى ، هذا الإنجيل الذى يعنى باليونانية البشارة ذلك الإنجيل الذى يعرفه النصارى بالعهد الجديد ويتمثل فى الأناجيل الخمسة :

(مرقس - برنابا - يوحنا - متى - لوقا) .

❖ والله الذى أنزل هذه الشرائع قامت به السموات والأرض قبل خلق عيسى ، فكيف قامت هذه السموات والأرض ؟ وكيف نزلت الشرائع السابقة لوجود عيسى قبل أن يوجد عيسى ... ؟

❖ والإله يخلق ولا يُخْلَق ، فكيف يكون عيسى إلها وهو مخلوق مثل غيره من الخلق ... ؟

❖ والله أنزل الفرقان ووهب العقل والوجدان ليفرق الإنسان بين الحق والباطل وعيسى لم يكن قادراً على أن يهب العقل أو يمنح الوجدان . ولا كان بقادر على صناعة العقول أو خلق الأفهام فكيف يكون إلها وليس فى قدرته خاصة الخلق .. ؟

❖ إن عيسى كان يخبر بالغيبيات بوحى من الله عن أمور دنيوية كانت ماثلة فى حياة المعاصرين له ، ولكنه لم يكن بقادر على أن يخبر عن شىء فى الأرض ولا فى السماء .

فهو ليس كالإله الواحد الذى لا يخفى عليه شىء فى هذا الوجود .

❖ عيسى بن مريم نبى مرسل وليس إلهاً .. وعيسى بن مريم ليس إلها ، لإنه ولد من غير أب ، فكل مخلوق عبد لله كيفما خلق .

* وعيسى لم يصور أحداً فى رحم أمه بل هو على العكس صوره الله فى رحم مريم كما صور كل الخلق فى الأرحام .

فهل من المعقول أن يكون عيسى مماثلا فى خلقه للبشر ثم يكون إلهاً لهم ..؟

فالله من صفاته : الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وهكذا أتى الرد الإلهى على ألوهية عيسى بمثابة منارة تهدى إلى الرشد فى الجدل والإقناع والمثالية والاعتدال .

٢ـ آداب التدبر فى القرآن :

﴿ هُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ
وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ
مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

«سورة آل عمران ، الآية ٧»

يؤكد لنا الله - سبحانه وتعالى - أن القرآن وهو دستور السماء فى الأرض فيه آيات واضحة المعنى والدلالة وآيات أخرى تحتمل أكثر من معنى.

والمؤمن الحقيقى هو الذى يُجمل قلبه بالثقة فى كل ما نزل من عند الله ويعلم أن القرآن نزل لكل العصور والأجيال والأزمان .

أما المؤمن الناقص الإيمان والذى فى قلبه مرض الميل عن الحق ينظر فى القرآن فيجد الآيات المحكمات واضحة الدلالة فيتعامى عنها ، وينظر إلى الآيات المتشابهات ويتفلسف فيها وفق هواه ورغباته ونزعاته ، ويتجاهل حقيقة إعجاز القرآن الذى فيه من الكنوز والمعارف مالا يعرف جواهرها ومضمونها إلا امن اتقى الله فشرح الله لها صدره .

ولهذا نجد أن العلماء الثابتين فى العلم المتأكدين منه يؤمنون أن الكل من عند الله ويجب التزام الأدب والحدود فى فهم معانى الآيات المحكمات والآيات المتشابهات وهم لهذا يؤكدون ثقتهم فى دين الله ويدعون ربهم أن لا يُقَدِّر عليهم زيغ القلوب أى ميلها عن الحق بعد أن هُدوا إلى الصراط المستقيم خشية يوم الحساب الذى سوف يُحاسَبُ الكل فيه عن خيره وشره.

(أ) أسباب نزول المتشابه فى القرآن :

❖ ويجب أن نوضح هنا : أسباب نزول المتشابه فى القرآن برغم أن القرآن نزل لهداية الناس جميعا :

١ . إن القرآن يخاطب كل البشر الفقير والغنى ، العالم والجاهل فى كل زمن ، منذ نزوله وإلى الأزمان المقبلة التى هى فى علم الله .

والمتشابه فى زمننا جاء نتيجة تقدمنا الفكرى والعلمى ويمثل مناجم للعقل ليفتش أمور الكون والحياة والعلم والمعرفة .

والمتشابه يجعل عقولنا فى حركة تدبر وتأمل وتفاعل دائم فنصل إلى ما تصل إليه ، ونسلم للأجيال القادمة خلاصة ما أفرزناه ليستمروا فى البحث والمعرفة .

٢ . المتشابه يمثل العنصر النشط للتفاعل الروحى بين المؤمنين حتى يدافعوا عن العقيدة ضد المفترين والمدعين ، فلو أن أمور العقيدة ثابته مستقرة دون تحد من كفار كل زمن لفقدت العقيدة الإسلامية تأثيرها وأصبحت شيئا روتينيا وطقوسا ميكانيكية تؤدى .

٣ . المتشابه فى القرآن هو ميزان يُقَاسُ به الإيمان الصادق . والإيمان غير الصادق للعبد .

٤ . المتشابه فى القرآن يشبع المزاج الروحى للاختلافات البشرية ، والأمزجة الشخصية لكل إنسان .

(ب) المتشابه ونماذج منه فى شأن عيسى بن مريم :

يقول - تعالى - فى سورة النساء :

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾

«من الآية ١٧١»

وهذه لأنها من الآيات المتعددة المدلول والمعنى ، فإن النصارى يأخذون منها مرة أن المسيح هو الله ، ومرة هو ثالوث ، ومرة هو ابن الله .

فيرد عليهم القرآن بأن هناك آيات محكمات تنفى هذه المزاعم ، آيات واضحات ظاهرات ، فالله يقول فى سورة الإسراء :

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾

«من الآية ٢٣»

أليست هذه تأكيدات على وحدانية الله..؟ ويقول -جل وعلا- فى سورة الزخرف:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

«الآية ٥٩»

ويؤدب الله عباده الصالحين أدباً فكريا رشيداً .

فيجب علينا أن نقف عند الآيات التى نختلف حول معناها وقفة المتأمل الغيور على دينه وعقيدته ، وأن نردها إلى الآيات المحكمات ذات المدلول الواضح لنا .

فإذا كان الخلاف مع النصارى حول قوله - تعالى - :

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾

«سورة النساء ، من الآية ١٧١»

فيجب أن نرد هذا الخلاف بالبرهان المحكم فى آية الله التى تقول :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾

« سورة الزخرف ، من الآية ٥٩ »

وقوله - عز وجل -:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

« سورة آل عمران من الآية ٥٩ »

وقوله تعالى:

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾

« سورة النساء ، من الآية ١٧٢ »

٣ـ مصادر قوة العقيدة وقوة الإسلام :

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

«سورة آل عمران ، الآية ١٣-١٤»

* إن الله يظهر لخلقه فى كل زمان آيات الحق والهداية لتظلل البشرية بمظلة الرحمة .

فهو القوى : وبقوته وقدرته يضع موازين العدالة والمحبة ولا يرضى بظلم من عبد يتوهم القوة ويعلو عن الخلق .

وهو الغنى : الذى يعطى الخلق بميزان العدل والرحمة ولم يشرع سطوة من اعطاهم أو ذل من افقرهم .

وهو المهيمن: فهو وحده له ملكوت السموات والأرض واليه يعود كل الخلق لحسابهم .

وهو الناصر : الذى ينصر مَن يستعين بقوانين ونواميس الكون الذى سيره ووضع الأسباب والنظريات التى تحكم مساره واستقراره .

والغلبة والنصر دائمًا وأبدا لله وحده ورسوله والمؤمنين فى كل عصر وأوان وأمثلة التاريخ تؤكد نهاية الكفر على أيدى جند الله وإن قل عددهم ، فقصة طالوت الذى انتصر بالفئة القليلة المؤمنة التى لم تزد على ثلاثمائة وثلاثة عشر مؤمنا انتصرت على جيوش الكفر بقيادة جالوت، وقصة انتصار محمد رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى موقعة بدر، ولم يزد المقاتلون معه على ثلاثمائة وثلاثة عشر مؤمناً على الكافرين بكثرتهم .

فما هى قصة بدر ؟ وما هى مُعطياتها الوجدانية ... ؟

غزوة بدر:

وصل الرسول العظيم ﴿ﷺ﴾ مهاجراً بدينه من مكة إلى المدينة ولم يفكر فى ملك ولا فى مال ولا فى تجارة إنما كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبعون رسالته ، وكفالة الحرية لهم فى عقيدتهم ككفالتها لغيرهم فى عقيدتهم ، وكذلك حرية الرأى وحرية الدعوة إليه .

فالحرية وحدها هى الكفيلة بانتصار الحق وبتقدم العالم نحو الكمال فى وحدته العليا .

هذه الوجهة من التفكير هى التى جعلته ﴿ﷺ﴾ جَنُوحًا للسلم راغبًا عن القتال مقتصداً طوال حياته أشد القصد فيه . غير لاجئ إليه إلا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية ، دفاعاً عن الدين والعقيدة .

وكان الرسول متجها لغاية واحدة عليا هى كفالة حرية العقيدة والرأى كفالة فى سبيلها وحدها أُحِلَّ القتال ، ودفاعًا عنها أُبيح دفع المعتدى حتى لا يُفْتن أحد عن دينه ، ولا يُظْلَم أحد بسبب عقيدته أو رأيه .

وكان المنهج متمثلا فى توفير مظلة السلام التى ينعم فيها الجميع من مسلمين ونصارى ويهود بالطمأنينة وكان ثمرة ذلك متمثلا فى عهد

الموادعة الذى تم بين المسلمين واليهود ، والمؤاخاة بين المسلمين ، تلك المؤاخاة التى طمأنت محمداً إلى وحدة المسلمين .

وكان من الضرورى أن تمتد مظلة السلام إلى حدود أبعد من المدينة فلابد من سيادة قواعد العدل متمثلة فى حقوق المهاجرين التى تركوها فى مكة مرغمين .

وما دام الإسلام هو واضع قوانين العدل والسلم فلابد أن يتحقق للإسلام المتفاعل فى المدينة المنورة سلامه .

فها هى ذى أموال المسلمين المهاجرين فى مكة وقد استولت عليها قريش لابد من ردها ، عندئذ أمر النبى فى العام الثانى من الهجرة المسلمين القادرين على الحرب بالاستعداد لملاقاة قافلة قريش المتوجهة من مكة إلى الشام .

واستعد المسلمون ولم يزد عددهم على ثلاثمائة وثلاثة عشر مؤمنا ولم يلحق المسلمون بالقافلة الذاهبة إلى الشام فأمر الرسول بالاستعداد لمقابلتها عند عودتها ، ولما عادت قال الرسول للمؤمنين :

- هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجوا إليها لعل الله أن يغنمكموها » .

وفى الثامن من رمضان خرج المسلمون إلى بدر ، وعلم الرسول أن قريشا قد خرجت من مكة لقتاله .

وكان الرسول فى هذه المرحلة قدوة يحتذى بها على مر الأجيال فاتخذ مبدأ الشورى فى اتخاذ القرار الخطير الذى يمس مصلحة الأمة ومصيرها .

وهنا يجمع الرسول أصحابه ويستشيرهم فإذا بهم يقررون أن يخوضوا الحرب بجانبه . وهنا أيضا يقول ﷺ :

« سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر مصارع القوم » .

وسار الرسول بجنده الذين لم يزيدوا على الثلاثمائة والثلاثة عشر مؤمنا حتى وصل قرب بدر .

وهناك سأله الحباب بن المنذر قائلا :

يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، هل أنزلك الله فيه ولا يصح لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ... ؟

أم أنه يصح لنا أن نتشاور فى الأمور ونتدبر الرأى وشئون الحرب والمكيدة ...؟ هنا قال ﴿ﷺ﴾

« بل هو الرأى والحرب والمكيدة »

هنا أحس الحباب أن الرسول يعطيه الإذن بأن يقول ما يريد ويخطط ويدبر ، ويعطى خبرته فى صالح المعركة الأولى للإسلام .

فقال الحباب : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى إلى المكان الذى يتحكم فى الماء فننزله ثم نبنى على هذا البئر حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .. هنا قال الرسول :

« لقد أشرت بالرأى » :

ودعا رسول الله رب العزة قائلا :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلها وخيلائها . اللهم فنصرك الذى وعدت »

وبدأت معركة بدر فى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة وهنا يعد الرسول الكريم صحابته بوعد لم يسمعوه من قبل يستشعرون فيه عبير الجنة ويحسون من خلاله بعمق الإيمان الكامن فى قلوبهم وإيقاع القوة عندما يقولون : (الله أكبر) . قال الرسول :

« والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً ، محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

وبرغم قوة جيش قريش عدداً وعُدة وقلة عدد جيش المسلمين .

إلا أن النصر كان حليف هؤلاء القلة الذين حملوا فى قلوبهم كنوز الإيمان وعمروا أنفسهم بالثقة فى الله ، وفضلوا الشهادة على الحياة الدنيا.

وهذا يؤكد لنا أن العقيدة القوية وعقيدة النضال القائمة على العدالة والمشروعية أقوى من أفتك الأسلحة ، واعتى الجيوش .

٤ ـ الميثاق الروحى للنفس المؤمنة :

ينبه الله العباد وأجيال المشركين فى كل زمان ومكان والأمم وقادتها أن كل نظام اقتصادى مهما وصل إلى حد الرفاهية . وأن زيف المتاع الدنيوى ، وأن القوة العسكرية مهما تعاظمت ، وأن التحكم فى أقوات الخلق بامتلاك أسباب الغذاء والأقوات التى هى من عند الله ، هى قدرة زائلة لا تُثْمِرُ لأصحابها إلا الغرور والصلف ، ولا تغنى أصحابها من جوع روحى هم يفتقدونه ، ولكنهم لو اهتدوا إلى الفطرة والصراط المستقيم وكانوا لله عباداً ينفذون شريعته فى الأرض ، ويستخدمون نعمته التى أنعم بها عليهم فى الخروج من نظرياتهم الوجودية أو الإلحادية إلى نظرية التوحيد الإلهية فإن لهم حسن المآب .

❖ ويطرح القرآن حقيقة مؤكدة تبرهن للخلق وللأمم جميعا على الغاية من هذا الكون وتشير إلى :

ـ أن الكفر مضيعة لمعنى الإنسانية .

ـ وأن الشرك تسفيه للإنسان المشرك لنفسه .

ـ وأن ادعاء النصرانية كدين باق أمر مناف للمنطق والعقل .

ـ وأن دعوى اليهودية بأنهم على حق باطلة .

ـ وأن زينة الحياة ليست فى متعة النفس والشهوات ، فمتعة النفس فى التزود بالتقوى والتحلى بالقيم الجمالية الدينية .

ـ وأن كل نفس ذائقة الموت ، وأن تقوى الله خير من الدنيا وما فيها .

ـ وأن غاية الإنسان يجب أن تكون رضا الله لأن المتقين مثواهم جنات فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأن ما يجب أن يعيه كل مؤمن صادق الإيمان أن الله وضع فى هذا الكون

قوانين تنظم حركته الدنيوية ومَن أخذ بأسباب هذه القوانين أعطته هذه القوانين مراده وغايته .

إلا أن هناك أموراً خارقة للعادة وخارقة لهذه القوانين لا يعطيها الله إلا لمن اقترب من ملكوت الله واستغرق قلبه فى ملاحظة جلال الله وعظمته ، وغاب عن حسه الدنيوى أو نفض عن روحه سراويل الحياة الزائلة وأسبابها ، ولبس لباس الخشوع والحمد لرب الأسباب والمسببات.

وها هو ذا القرآن الكريم يعطى لكل الأجيال نموذجا دنيويا على لسان زكريا ﴿عليه السلام﴾ حينما دعا ربه وهو متجرد من أسباب الدنيا متقرب إلى الله :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾

« سورة آل عمران ، الآية ٣٨ »

وقصة سيدنا زكريا تستحق التأمل والاعتبار ولها موقعها المتميز فى أجزاء الموسوعة الإسلامية ، ثم إنها مخاطبة وجدانية وعقلية ترسى معالم القرب من الله والثقة فى قدرته .

الفصل الثالث

ميثاق أخلاق الأمة الإسلامية

لَقَدْ كَانَ رسُولنا العظيم ﴿ﷺ﴾ نموذجًا وأُسوة حسنة فى الخُلُق الكَريم وَقَدْ وصفهُ - سُبحانه وتعالى - بقوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وقد استطاع الرسول العظيم أن يبنى اللبنة الأُولى للشخصية الإسلامية تلك الشخصية التى ارتقت إلى غاية الذروة من السمو ، وَخَلَع عن هذه الشخصية عبث عبادة الأصنام . وأبعد عنها تأثير الكهنة والعرافين ، ولم يُبقْ على شىءٍ يحول دون أن تَرتفع روح هذه الشخصية المسلمة لتتصل بالوجود كله صلة خير ومعروف . وليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافًا مضاعفة .

وارتقى بالروح المؤمنة رقيًا وسمواً فوق سلطان المادة وفوق سلطان الزمن ولقد بث فى نفوس المسلمين معانى العقيدة الإسلامية فحلت فى سويداء القلوب ومكامن الملكات ، وأيضًا قد وضع ميثاقًا لأخلاق هذه الأُمة المسلمة تقوم عليه حضارتها وتميزها .

ويرتكز هذا الميثاق الخالد على مبادئ سامية منها :

١ - وحدة القلب والقالب :

إن الشريعة الإسلامية تؤكد فى هذا المجال على أهمية وحدة المسلمين وعدم التفرق ونبذ روح العنصرية العرقية . وهذا الانقياد لأسباب الفرقة دون معرفة مصدرها وأهدافها أو الداعين إليها . ومن واجب المؤمنين أن يستلهموا الهداية فى سلوكهم استناداً إلى ما ينص عليه كتاب الله ، وسنة

الرسول العظيم ، ثم إن الإحساس بالعقيدة الإسلامية والارتكاز على الفطرة الأصيلة تعد من ضروريات الصلاح فى أمور الدين والدنيا . ثم يتبع ذلك أهمية تفهم أهداف القوى المناوئة للإسلام ، والحاقدة على المسلمين فى كل عصر وأوان ، لأنها إن دخلت بين المسلمين أو حاولت الادعاء والحرص على المصلحة الإسلامية فإن ذلك افتراء بعيد عن الحقيقة ، فهذه القوى ترى فى قوة الإسلام ضعفاً لها وفى ترابط المسلمين ضياعاً لمصالحها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

« سورة آل عمران : الآية ١١٨ »

٢ـ تقوى الله :

وتقوى الله هذه ليست رمزاً لتأدية الطقوس أو لفظاً يؤدى بالتمتمة والتسبيح، ولكنها ممارسة أفعال يأتى من ورائها الخير للمجتمع الإسلامى ، وللفرد المسلم ، وللبشر أجمعين ..

وتتجلى التقوى فى قوة الإيمان الذى يهذب سلوك المسلم أخذاً وعطاء . ويهذب سلوكه مع مجتمعه كله ، ويربط عطاءه بقدراته ، وتقوى الله هى دستور المسلم فى قوته وضعفه ، ومسئوليته وسلطاته ، وفى السر ، والعلن ، وفى الفعل ، واللافعل ، الأمر والنهى ، فالتقوى هى جمع لخيوط القدرات الإسلامية لتشكل نسيجا من الأفعال والمعطيات التى تهدف إلى خير الأمة وتعود بالخير على الإنسانية .

٣ـ الأخذ بأسباب القوة :

لا يمكن لأمة أن تكون قوية دون عوامل الوحدة ، ومقومات التقوى التى يجب أن تستند عليها ، فالقوة بأسبابها ضرورة من ضرورات البقاء والسيادة:

فقوة بالعلم ومعطياته .

وقوة بالرحمة وبأهميتها .

وقوة بالإيمان ويقينه .

وقوة بالأخلاق وعظمتها .

وقوة بالسلام وأسبابه .

وقوة بالحرب وفنونها .

وقوة بالتفوق فى كل المجالات الحياتية .

ثم إن القوة قد تتوافر لكل الأمم إلا أن القوة المرتكزة على حبل الله الذى يمثله الإيمان الراسخ والطاعة لله ولرسوله استناداً على القرآن وسنة الرسول تمثل حبل الله المتين .

٤ـ التمسك بدستور القرآن :

والأمة الإسلامية يجب أن تتمسك بقيم إنسانية سامية تتمثل فى :

ـ الدعوة إلى الخير .

ـ الأمر بالمعروف .

ـ النهى عن المنكر .

ـ عدم الاختلاف حول الأمور الأساسية الواضحة تكبراً أو غروراً أو استعلاء ؟

- البعد عن أسباب الظلم .

- عدم الخوف من مكائد الأعداء .

الارتكاز فى عقيدة الجهاد - النضال على منهج القرآن فى الحرب والسلام .

٥- التحلى بالأخلاق السامية:

إن ميثاق أخلاق الدين الإسلامى يرتبط دائماً بالجوهر لا بالمظهر، بالقلب والأعماق بعيداً عن السطحية والمظهرية ، فالدين ليس فقط شهادة ميلاد أو مسبحة أو زبيبة فى جبين الإنسان ، وليس سجادة صلاة تشهد ركوعًا وسجودًا يطول أو يقصر ، وليس إعلانات عن صيام نوافل ، وصيام أيام وشهور، وليس إلى حج تشد إليه الرحال ، وعناقات مودعين وأهازيج مستقبلين .

فأخلاقيات الدين الإسلامى مسطورة على جبين المؤمن ضياء ، وفى سلوك المؤمن خشية من الله فى السر والعلن ، وفى خلوته مع ذاته تسبيحًا بحمد الله ، وفى مواجهته للشدائد صبرًا ، وفى حبه للناس كحبه لنفسه ، وفى عمله إتقانا ، وفى علاقاته بالناس قدوة .

ومن هنا يجب المقارنة بين نوعين من الأخلاق :

الأخلاق الدنيوية ، والأخلاق الدينية .

(أ) الأخلاق الدنيوية :

فهى مثل ما نشاهده من سلوك المجتمعات التى تطلق عليها اليوم (المتحضرة)، فهى تستخدم ذكاءها الاجتماعى فى حسن التعامل ، والأدب

الاجتماعى ، وكسب المودة وهذه ليست أخلاقا ، فهى تتمثل بذكاء التاجر الذى يتأكد له أن المعاملة المثلى مع العملاء مجلبة للشهرة ، ومجلبة للربح ، وغاية قصده تحقيق ربح من وراء استخدام ذكائه فى التعامل مع أصناف البشر ، أو المتعاملين معه فهى تجارة منفعة . وهو ما تتبعه وتتخذه الدول المتقدمة إعلاما عن سلوكها الحضارى الذى يفوق سلوك من يتكلمون عن ميثاق أخلاق الدين الإسلامى وهذا منتهى الجهل ، ومنتهى الغباء العقلى حول ميثاق أخلاق الدين الإسلامى الذى يتمثل فى الأخلاق الدينية.

(ب) الأخلاق الدينية :

نقول : إن الإسلام دين أخلاق ويفترق عن الأخلاق الدنيوية بكثير ، فالأخلاق التى ينص عليها الإسلام تبعد عن تجارة المنفعة ، وليست عادات حميدة تكتسب بالوراثة السلوكية . أو التقليد أو التعلم .

وتبعد بعداً كاملا عن كافة أنواع الحرص على الدنيا .

فأخلاقيات الإسلام ترى أن الدنيا عرَض زائل لا يجب الحرص عليه ، وأن الغاية من الوجود طاعة الله ورضاه ، وأن المثل العليا والأخلاق السامية أوجدها الله كصمام أمن وأمان للإنسانية وليست تجارة بين البشر ولكنها مطلوبات إلهية يثيب عليها من فيض رحمته تعالى .

وأن عطاء المسلم مرتبط بقانون سماوى يؤكد أن على القوى صدقة قُوته، وعلى العالم زكاة فكره ، وعلى الغنى صدقة ماله ، وأنه لا حب للنفس ولكن محبة الجميع واجبة .

وأن أخلاقيات الإسلام فى كل حرف قرآنى يقال وفى كل كلمة تتلى ، وفى كل آية ترتل ،

وأن أخلاقيات الإسلام ليست تجارة بين البشر ولكنها كالقرض الحسن

لله سبحانه ، ثم إن السمات الرئيسية للأمة الإسلامية تتمثل فى أنها الأمة التى تعمل بكتاب الله ، ودستورها القرآن وميثاقها الأخلاق والتى تتمثل قولا وفعلا عقلا ووجدانا بأوامر الله ونواهيه ، وتتميز بصفات خصها الله بها فهى الأمة التى :

- تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ومؤمنوها جميعا يمتثلون لهذه القيم الأخلاقية ويتجملون بها فى سلوكهم .

- أمة تؤمن بالله .

- أمة تثق فى نصر الله على أعداء الإيمان .

- إن من يحمل فى قلبه إيمانا يتحقق له النصر ، والذين يحملون ظلام الكفر دائما فى فزع من أنفسهم ، ومن عقيدتهم الزائفة ، وهم دائما يخافون الموت ويخافون مواجهة المؤمنين حربا ، لأنهم يثقون فى نصر الإيمان .

- إن الأمة المسلمة قوية فى إيمانها ، وإن من أسلحتها القوية النضالية التى تقوم على المعرفة والعلم بأن أعداء الإسلام قدر الله لهم وضرب عليهم الذلة أينما كانوا ، وهم كذلك إلى الأبد ، وإن كانوا أغنياء ، لأنهم ورثوا صفات الذل ، وضعف النفس ، وامتهانها ، بل بيع الشرف لأجل المال ، فهم فى فقر دائم وذل مستمر يعبدون المال ويبيعون العرض والشرف .

وما على الأمة الإسلامية إلا أن تعى أن الإيمان كل لا يتجزأ ومن يتخلً عن جزء من الإيمان يتخلً الله عنه ويصبح شريكا فى الأسباب الحياتية مع المشركين واليهود سواء بسواء .

- إن الأمة الإسلامية متميزة بفعل إيمانى متميز هو قراءة القرآن وتلاوته فى الليل والناس نيام، خاشعون وغيرهم فى شئونهم من السهر واللهو والمتع الزائلة غارقون .

- إن الأمة المسلمة هى التى تثق فى يقين بربها ، وباليوم الآخر الذى سوف يحاسبون فيه ، ويتسارع المؤمنون بفعل الخيرات والصالحات والانتهاء عن المنكرات .

- إن الأمة المسلمة تنفق أموالها لصلاح شأنها وأبنائها ولقوة إيمانها ، وإنفاقها لزيادة الخير والإصلاح ، والاستقامة لحاضرها ومستقبل أجيالها .

- إن الأمة الإسلامية لا تتخذ من غير المسلمين أخصاء ، وأصدقاء إيثاراً بالمودة ، واطلاعاً على الأسرار ، وعليها أن تعلم أن غير المسلمين لا يبحثون إلا فى إيصال الفساد لكل المسلمين ، ويبذلون أقصى الجهد لإيقاع الضرر بهم .

٦- المنهج الإعلامى الرشيد :

- إن الأمة الإسلامية عليها رسالة إعلامية هامة لأبنائها وأجيالها فعليها إعلام أبنائها بالآتى :

- إن مَنْ هُم على غير دين الإسلام يحملون البغضاء فى قلوبهم للمؤمنين ويخفون فى صدورهم الحقد والكراهية .

وإن كان هناك حب حقيقى منكم لهم، فلا حب لكم فى قلوبهم مهما فعلتم .

إنهم لا يعرفون لكم غير النفاق .

- إن صَلُحَ حال المسلمين اغتاظوا وحقدوا ، وإن ألمت المصائب بهم فرحوا وهللوا .

- إن الصبر من سمات الأمة الإسلامية .

- وإن التقوى والصلاح مفتاح الهداية والرشاد .

- إن أكل الربا والتعامل فيه من المحرمات التى ينهى عنها الله وهو خطر علي الأمة والفرد .

- إن طاعة الله ورسوله رحمة بالإنسان ويمجتمعه.

- إن الاستغفار لله والتوبة من الأخطاء والمعاصى من ضرورات صقل الإيمان ، وقوة الإسلام.

- إن كتمان الغيظ وامتلاك أسباب ثورة النفس عند الغضب من قوة الإيمان والتقوى .

- إن العفو عند المقدرة قمة الإيمان .

- وإن عدم الحقد على الغير إحسان إلى النفس ، وإحسان إلى الغير .

وعن كظم الغيظ والعفو والإحسان تروى لنا كتب التراث قصة قصيرة لجارية عند سيدنا الحسين بن علىّ رضى الله عنهما :

كانت الجارية تصب ماءً كى يتوضأ ، وأثناء صبها للماء ضعفت يدها ، وسقط الإبريق ، ووقع على وجه الحسين فشجّه .

فرفع رأسه والدم يقطر من وجهه تجاه الجارية فقالت : إن الله يقول :

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾

« سورة آل عمران من : الآية ١٣٤ »

فدخلت الكلمات القوية نافذة إلى القلب الكبير الإيمان فرد قائلا : كظَمْتُ غيظى .

فقالت مستلهمة عظمة كلمات الله :

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾

« سورة آل عمران من : الآية ١٣٤ »

فرد صاحبُ القلب الخاشع لأوامر الله ، وقال للجارية : عفوت عنك .

قالت المرة الثالثة : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

(سورة آل عمران من الآية ١٣٤)

هنا كان الموقف فيه إجلال لله ، وفيه مباراة إيمانية من التواضع لجلال الله ومدلولاته النورانية .

فماذا يكون رد الحسين لهذه الجارية التى حاورته بلغة الإيمان وسابقته فى اللجوء إلى الله ... ؟

قال لها الحسين : اذهبى فأنتِ حُرَّةٌ لوجْهِ الله .

هذه هى منهجية المبادئ الإيمانية للسلوك بالقول والفعل ، وهى معايير من معايير الإيمان للأمة الإسلامية ، ورمز لمعطيات أغصان بستان الوجدان الإسلامى السامى التى تورق رحمة وتزهو فضلاً وبرا .

٧ـ سمو عقيدة النضال وأركانها :

إن عقيدة النضال فى الإسلام تُرَسخ في الإنسان المسلم معالم مُحَدَّدَة حيث يرَى أن الحق فوق القوة .

وأن من الأولويات النضالية الدفاع عن كرامة الإنسان ، ودفع الظلم ، ونشر العدل ، وتعظيم الأمر بالمعروف ومواجهة سلطان القهر والكفر .

ولنا فى غزوة أُحد ملامح محددة توصلنا إلى أركان عقيدة النضال الإسلامية وسموها وتُبرز الإعجاز الوجدانى فى آيات القرآن والتى تصور أبلغ تصوير ملامح ومنهج إذكاء الوجدان المسلم على مر العصور .

قصة غزوة أحد

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾

« سورة آل عمران ، الآيات ١٦٤/١٦٧ »

صممت قريش على الانتقام من سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾ وجنده عندما انتصر المسلمون عليهم فى غزوة بدر.

أراد المشركون أن يحفظوا ماء الوجوه ، أو يمحوا عار الهزيمة ، وبدأت عملية التحضير للمعركة ، فجمعت قريش ثلاثة آلاف مقاتل وجهزتهم بالعدد والعتاد والخيل والجمال ، وكل ما هو من لوازم الحرب كراً وفراً وفنا فى زمانهم ، علم الرسول الكريم بهذه الاستعدادات ، فاستشار الرسول ﴿ﷺ﴾ أصحابه فقالوا : نخرج لقريش .

وقال البعض ومعهم عبد الله بن أبى زعيم المنافقين ورأس اليهود فى المدينة : نبقى فى المدينة ونحصنها ونقاتلهم فى الأزقة والدروب .

وكان الرسول ﷺ يفضل البقاء فى المدينة والدفاع عنها وقال لأصحابه :

إنى أخاف عليكم الهزيمة .

إلا انه أخذ برأى الأغلبية من الصحابة الذين أشاروا عليه بالخروج طبقا لمبدأ :

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾

ولما بدأت مراحل الخروج من المدينة حاول بعض الصحابة الرجوع عن أمر خروج الرسول وأصحابه لمواجهة قريش وجندها خارج المدينة .

ولكن الرسول قال :

« ما كانَ لنبى إذا لبِس لأمته (درعه) أن يضَعَهَا حتى يحكمَ اللهُ بينه وبينَ أعدائه ، وانظُروا ما آمرُكمَ بِه فاتبعونى والنصرُ لكُم ما صَبَرتم » .

كان هذا عصر الجمعة السادس من شوال . وفى فجر السبت خرج الرسول مع الجيش ، وفى الطريق رجع عبد الله بن أُبىّ متعللا بقوله : أيعصينى ويطيع الولدان ، وعاد ومعه ثلاثمائة من أصحابه ولقد عنى بهذا أن الرسول قد أخذ برأى الشباب والصحابة للخروج لملاقاة قريش خارج المدينة ورفض مشورة عبد الله بن أبى والشيوخ بالبقاء فى المدينة والدفاع عنها .

وأيضا رجع المنافقون ، ولم يبق مع الرسول العظيم إلا سبعمائة رجل .

وأيضا أعاد الرسول بعض اليهود الذين خرجوا مع المسلمين لقتال قريش ، لأن الرسول عندما رآهم قال لهم :

« لا يُستنصر بأهل الشرك ما لم يسلموا » .

فرجعوا إلى المدينة ، وتقدم المسلمون حتى وصلوا جبل أحد ونظموا أنفسهم عنده ، كان مع المشركين خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ومعهم أيضا نساء بزعامة هند بنت عتبة يضربن بالدفوف ويمشين وراء الصفوف قائلات :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وأصدر النبى ﴿ﷺ﴾ أوامره إلى الرماة قائلا :

« احمُوا ظهورنا فإنا نخافُ أن نُؤتَى من ورائنا وإياكم أن تَبْرَحُوا مكانكم سواء قتلناهم أو قتلونا فلا تُعينونا ولا تُدافعوا عنا .. اللهُمَّ فاشْهد »

وحث الرسول ﴿ﷺ﴾ صحابته وجنود على الصبر والتقوى ودارت المعركة وكانت مقدمات النصر للمسلمين والهزيمة تحيط بالمشركين .

لولا أن انقلبت الدائرة فهاهم الرماة الذين نبههم الرسول الكريم بعدم ترك مواقعهم فى كلتا الحالتين النصر أو الهزيمة يخيل إليهم أن النصر للمسلمين فهرعوا ونزلوا من أماكنهم لجمع الغنائم .

هنا جاءت المفاجأة، خالد بن الوليد قائد ميمنة المشركين ينتهز الفرصة ويتنبه لوجود ثغرة تركها الرماة فينفذ منها هو وجنوده وتدور الدائرة على المسلمين ، وها هو خالد وجنوده ينقض كالصاعقة وأشرعوا سيوفهم فى المسلمين فانفرط عقد المسلمين وسمع مناد يقول : إن محمداً قد قتل. وأصاب الفزع المسلمين واختلطت الأمور عليهم وسرت الشائعة فى أوصال المسلمين وبدأت قهقرتهم وسرعان ما تدارك الرسول هذا الأمر وصاح فى أصحابه :

﴿إلىَّ عبادَ الله أنا رسولُ الله﴾

وكان الرسول ﴿ﷺ﴾ يأتيه النبل من كل جانب إلا أن الله كان عاصمه من الناس .

وأعلن بشير من المسلمين أن الرسول حى ولم يمت .

هنا علت الفرحة قلوب المسلمين والتفوا حول النبى ﴿ﷺ﴾ الذى شج وجهه وأصيبت ركبتاه .

وقتل فى أحد سبعون من المسلمين منهم حمزة سيد الشهداء .

ولكن لماذا هزُم المسلمون وقائدهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ ..؟

إن أسباب النصر والهزيمة تتجلى فى قانون يعم المسلمين والكفار فى كل زمان .

فمن أسباب النصر :

-الانقياد لأوامر القائد وعدم الخروج عنها .

- الالتزام بالخطة الموضوعة للمعركة وفق الأدوار المخصصة لكل فريق أو مجموعة .

- البعد عن السلوك والتصرف الفردى لأى قائد أو جندى مشارك فى المعركة.

- عدم الانقياد للإشاعات .

والمسلمون هزموا ، لأن الرماة لم يلتزموا بالأمر الصادر من رسول الله بعدم ترك مواقعهم ، وهزموا ، لأنهم طمعوا فى الغنائم ، ولقد شاء الله وأراد هذه الهزيمة للمسلمين ليعلم الخلق أن الأسباب والمسببات لابد منها لتحقيق النصر ..

٨ـ الجهاد :

إن الجهاد ليس كلمة تُقَال ، ويعلن عنها أو استعراض لمنطق الغرور والاستعلاء، فالجهاد هو الجهاد فى الله ، وصبر على البأساء والضراء وحين البأس لإعلاء كلمة الله ، ورفع رايات الحق ومواجهة أعداء الله .

ثم هناك جهاد آخر هو جهاد النفس ،وجهاد حب المال عند البذل فى الأعمال النافعة لأفراد الأمة ، ومصلحة المجتمع المسلم ، وأركان منظومة الجهاد تقوم على الآتى :

(أ) الصبر :

ويعنى هذا أن يتمكن الصبر من نفوس المؤمنين فيصبروا على أداء التكاليف الإيمانية .

- ❖ وصبر على الطاعة .
- ❖ وصبر على البلاء ، والنوائب ، والخطوب .
- ❖ وصبر وجَلَد فى مواجهة الأعداء .

(ب) عدم الانقياد للاشاعات :

فالإشاعات المضللة تهدم فى النفوس الضعيفة عقيدة النضال وروح الجهاد وعقيدة النضال تدعو المؤمنين إلى الذكاء فى مواجهة الإشاعات ، والمهارة فى استقبالها.

(جـ) العطاء بلا حدود:

الجهاد لإعلاء كلمة الله يحتاج إلى قوة الإرادة الإيمانية بلا ضعف ولا

خضوع للدنيا ومتاعها ، والتواضع فى تقدير البذل والعطاء ومهما يكن ما يقدمه الإنسان فى سبيل الله لابد أن يتواضع أمام عطاء ربه له أملا فى الرحمة والمغفرة الإلهية، فالإنسان قوى الإيمان أمام عطاء ربه له، يرى أنه مقصر فى الفعل ضعيف فى قدرته التى لا تتكافأ مع نعم الله ورضوانه .

(د) التوكل على الله والرضا والقناعة بالقضاء والقدر:

وهو لفتة إيمانية تجعل المؤمن مجاهداً عن صدق صابراً بحمد معطيًا متواضعًا فى سبيل الله .

(هـ) الثقة فى نصر الله :

ومن أسباب النصر للمؤمنين الصادقين الثقة فى نصر الله وهذا وعد من الله إلا أنه إذا كانت المعركة بين المؤمنين والكافرين وتحقق النصر لصالح الكفار، وقد ألقى الرعب فى قلوب المؤمنين فالأسباب أنهم ليسوا مؤمنين حقا ولكنهم مسلمون بالوراثة والاسم فقط.

(و) المبادأة :

وهى سبْقُ العدو فى التفكير، وتفهم نواياد . والعمل على مواجهتها.

(ز) وحدة الصف :

تقتضى عدم التنازع بين المسلمين، حتى لا يؤدى إلى الخروج عن الصف الواحد، ودخول القوى المناوئة للوقيعة والإضعاف والإفساد .

(ح) الوعى النضالى :

ولا يتأتى ذلك إلا بالتمرين على مواجهة الشدائد والمواقف العصيبة ، لأنها تصقل قدرات الرجال وتنفض الغبار عن معادنهم الأصيلة.

(ط) لكل أجل كتاب وعدم المبالاة بالموت :

إن الجهاد فى سبيل الله لايقصر الأعمار وإن الهلاك لا يكون بالسفر أو الحرب ، والمثل يأتينا على يد خالد بن الوليد الذى يقول :

"ما فِيَّ شبر إلا وفيه : ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، وها أنا ذا أموت على الفراش كالبعير ، فلا نامت أعين الجبناء " ثم الثقة المطلقة فى قول الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

«سورة آل عمران . الآية : ١٤٥»

ومن يمت فى الجهاد فهو شهيد ولهذا تتعاظم النفس الشهيدة فى سبيل الله ويصور العلىُّ القدير فَضْلَهَ على الشهداء فى آياته أبلغ تصوير ، تلك الآيات التى ترسم صورة وجدانية رائعة للشهداء .

ويؤدب الإسلام عباد الرحمن أدبًا روحيًا ساميًا ، هذا الأدب الذى يُصْقل فطرتهم ، ويُزْكى مداركهم ، ويُقَوِّى يقينهم ، ويجعل زادهم تقوى الله ، وإيثار الآخرة على الحياة الدنيا ، وما دامت الآخرة هى الغاية وما وعد الله عباده الصالحين حقًا وصدقًا ، فلماذا الحرص على الحياة ... ؟

وما دامت الحياة الدنيا الفانية مَعْبرًا لنعيم الآخرة ، فلماذا لا يكون العبور بثقة وقوة ..؟ ، ولماذا لاينهل المؤمن من مناهل التقوى ويزود نفسه بخير الزاد..؟

ولماذا لا يتجمَّل بقلادة شرف الشهادة ـ إن قُدِّر له ـ دفاعًا عن عقيدته ...؟

عظمة الشهادة فى سبيل الله

صور جمالية للشهداء :

تعد الآمال التى يتمناها كل مخلوق بمثابة الطاقة التى تدفعه لبذل الجهد ، والتعب والاجتهاد كى يحقق ما يريده ، ولكل إنسان آماله فى هذه الحياة ، ولكن تتنوع الآمال وتتعدد الوسائل . والفرق فى نقاء الآمال هى غاية كل إنسان ووسيلته فى تحقيقها .

وحينما نستعرض آمال الخلق نجدها غالباً ما تكون محصورة فى المال ، والبنين، والنساء ، ولا تخرج آمال الحياة المادية عن هذه العناصر الثلاثة .

ولكنها تخرج عند من يتفهمون الغاية من الوجود والحكمة من خلف الإنسان .

فهؤلاء يرون الحياة بعين البصيرة ومنطق العبودية لرب الأسباب وأنهم وجدوا ليعبروها إلى حياة الخلد ، ولهذا فهم يسارعون فى عمل الخيرات .

والإيمان بكل ما يأمر به الله طوعا واختياراً .

وينتهون عما ينهى عنه الله ـ عز وعلا . عن يقين ورضا ، غايتهم رحمة الله ، وآمالهم فى عبور هذه الحياة الدنيا . زادهم التقوى ليصلوا إلى بر الرحمة ورضوان الله .

ومن أعظم الفضائل الإيمانية التى يسعى إليها هؤلاء لبلوغ غايتهم الجهاد فى سبيل الله ، والاستشهاد وبذل الأرواح دفاعا عن الحق ولإعلاء كلمة الله .

ولهذا لم يترك الرسول العظيم محمد ﷺ الشهادة فى سبيل الله دون توضيح لصورة الشهيد ، وكيف يكون حيا عند الله ؟ وكيف يكون له رزقه ؟ وكيف يكون فرحة بفضل الله عليه .. ؟

إنها مدرسة محمد ﴿عليه السلام﴾ التى عُلِّقت فى ساحتها الوجدانية صورة صادقة معبرة ناطقة عن حياة الشهداء فى الجنة .

فلقد روى عن الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ قال :

« أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل معلقة فى ظل العرش » .

« تفسير البيضاوى ، سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩ ص٦٩ »

ويحدد القرآن الكريم صفة الشهيد بقوله - جل وعلا - فى محكم آياته :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

« سورة آل عمران ، الآيات : ١٦٩-١٧٤ »

وهكذا صور القرآن الكريم صورة الشهيد صورة رائعة تفوق خيال كل متخيل وتفوق تصور كل متصور .

ها هم أولاء شهداء الإسلام وأرواحهم التى خرجت من الأجساد البشرية الدنيوية لتصعد إلى صورة أسمى وأرقى من الحياة إلى حياة الخلد ، ثم تكون الحياة دائمة لهم فى نعيم الجنة فى صورة خالدة مخلدة فى أجواف طيور خضراء تنعم بأنسام أنهار الجنة وترتوى من مائها الذى لا يعلم مذاقه إلا الله ، ثم تأكل من ثمر الجنة وقطوفها الدانية الرائعة ، ثم إن مقامها ومبيتها فى مكان يتناسب وشرف استشهادها فليس أبدع من أن تأوى إلى مستقرها الإلهى الذى تبدو فيه كالقناديل الذهبية المعلقة فى ظل العرش المنعمة بالدرجات العلا .

ثم إن الله يوضح فضل الشهيد فى الدنيا والآخرة فهو الذى أعطى حياته وروحه فى سبيل الله .

والشهداء وهم فى نعيم الآخرة وفى نشوة النعيم الدائم والجزاء الأوفى لم تفتهم الرغبة فى التعبير والإعلام عن فضل الله عليهم وتمنوا أن يجدوا الوسيلة لإخبار إخوانهم بفضل نعمة الجهاد وثوابه عند الله ، ونعمة الاستشهاد وجزائه من الحياة الخالدة الأبدية ونعيمها الدائم الذى لا يكدره خوف من وقوع مكروه أو حزن على فوات حبيب .

هكذا يعبر القرآن أبلغ تعبير عن أهمية الجهاد وعظمة الاستشهاد فهما سلاحان من أخطر أسلحة العقيدة الإسلامية التى ترهب أعداء الإسلام وتقلق مضاجعهم .

فلنتصور أمجاد الأمة الإسلامية وفتوحاتها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ونتصور قوة القوى العظمى وقتها فى فارس والروم بجيوشها وجحافلها وقدراتهم العسكرية وموارها وثرائها وحلفائها ، وأعظم ما جادت به العبقرية العسكرية من فنون القتال وقتها .

وكيف انهارت هذه القوى وغُلبت أمام فئات قليلة مسلمة ، عقيدتها النضالية نابعة من عقيدتها الروحية : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

وجهادها : خالص لوجه الله وإعلاء كلمته .

وعطاؤها وذخيرتها : أرواح على الأكف لا تخاف الموت ولا تتمنى الحياة ولكنها تبذل الروح فداء لنشر كلمة الحق وسيادة نور الإسلام .

فكيف لعقيدة مثل هذه أن تقهر ... ؟

٩- السلوك المادى الأمثل للفرد والأمة الإسلامية :

يُعلِم الله الناس أن كنز المال بحجة الانتفاع به فى الملمات وهم وباطل ، لأن الله وحده هو النافع، والسلوك إلى مرضاته أجدى وأنفع .

وأن الجود (العطاء) لا يفقر ، ولكن البخل مثل إنقاص فرض الزكاة والصدقة هو الشر والخطر الجسيم على الفرد وعلى الأمم .

فخطر هذه الأفكار المادية يتمثل فى شيوع وانتشار هذه الأفكار وبما تمثله من دلالات هدامة للنظم الاجتماعية . ثم إن من يفعلونها تنعكس عليهم وعلى ثرواتهم بالضياع ربما على أيدى أبنائهم أو زوجاتهم أو بفعل أهوائهم وانحرافاتهم الطارئة فى الدنيا ، ثم إن البخل منهى عنه فى الإسلام وعقوبته عند الله فى الآخرة كما تحكى بعض الروايات عن النبى ﷺ فى أن البخيل (مانع الزكاة) يجعل الله ما بخل به ، كحية تطوقه فى عنقه وتنهش من قرنه إلى قدمه وتنقر رأسه وتقول :

(أنا مالك أنا كنزك) .

والإسلام يؤكد أن البخل بالمال يعنى البخل بكل ما يساوى قيمة مالية ويعنى ذلك أن العلم المحقق للثروة مال .

وأن العمل المحقق للثروة مال .

وأن الجاه والسلطان المحقق للثروة مال .

وأن كل شيء محقق للثورة عبر كل العصور هو مال .

وأن البخل به مناف لمنطق المالك الأوحد لكل ما في يد العالمين والذى استخلف الانسان فى ملكه لإعماره .

فالله مالك الملك له سبحانه ما فى السماء والأرض مما يتوارثه الخلق جميعا فلماذا يبخلون بما لا يملكون حقا ولكنهم أمناء عليه لمصلحتهم ، ومصلحة عباد الله .. ؟

فكل ما مُنح للإنسان من مال أو جاه أو قوة أو علم هو عرض زائل وأمانة مستردة ، وصاحبه فانٍ غير باق والله هو المالك المتصرف ، ولله ميراث السموات والأرض .

١٠ـ النهاية المحتومة وخير زاد للرحيل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

«سورة آل عمران ، الآيتان ١٨٥-١٨٦»

وكل حى فان وإلى ممات ، وكل نفس ذائقة الموت وليس هناك من وُلِدَ ليبقى وعاش ليخلد فله يومه وله رزقه وله عمله ، فإن صلح فاز وإن أساء فعليها .

إن الضر أو الضرر الذى يصيب إنسانا فى حياته ليس أمراً يمر ، وينتهى بنهاية الحياة فكل إنسان سوف يأخذ جزاءه وافيا وكاملا غير منقوص يوم القيامة وقد يستكثر أحد هذا أو يستبعده وكأنه أمر هناك بعيد ، ولكنه قريب قرب اليقظة بعد منام لحظة فيوم الجزاء والوفاء قريب ، وهو يوم القسطاس والميزان وفيه تُوَفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

إن الحياة الدنيا وهى التى تمثلها حياتنا هذه بما فيها من لذات جسمانية كالأكل والشرب ، أو اللذات المعنوية كالجاه والسيادة والسلطان والمنصب ، هذه الحياة ما هى إلا سراب خادع وأملاك زائلة وغرور كاذب وكل من فيها يجب أن يعلم ويتيقن أن ما فى الحياة متاع خادع ، وملك زائل .

إن الحياة الدنيا صفقة خاسرة لمن اشتراها من النفس الأمارة بالسوء والشيطان الموسوس لها والهوى الذى يُحَبِّبُ فيها ، فقد غشه البائع ، وغره الموسوس ، وخدعه الهوى وعند نهايتها يتبين للإنسان فسادها وخداعها .

إن الحياة الدنيا فى يقين العاقل بُعد عن الاغترار وبُعد عن الإسراف فى حبها ورفض للارتماء فى أحضان مظاهرها المادية .

ولهذا وجب على المسلم أن يقوى نفسه تجاه الشدائد ، وألا يفتن بالمال، وألا يغتر بالنفس ، وشأن الأمة الإسلامية فعليها :

- أن تتقوى لمواجهة الأعداء .

- وأن تبحث عن كل الوسائل التى تقوى من بنائها الاقتصادي حتى لا تكون تحت رحمة المالكين لقوة المال والجاه .

- وأن تبحث عن كل الوسائل التى تحمى المجتمع والإنسان المسلم من الانحلال والذوبان فى المغريات والمعاصى حتى لا ينهار البناء الإنسانى .

١١ ـ الدعوة للتأمل والمعيار الفكرى للإنسان السوى :

الله هو الخالق هو البديع هو المصور هو الرافع هو القابض هو المهيمن بيده كل شىء وله الملك والملكوت .

ومن يرد أن ينال رحمة الله ورضاه يكون قد اهتدى لأنه بغير رحمة الله فى الدنيا يكون العذاب الوجدانى والقلق النفسى والتكالب على الحياة بمباهجها الزائلة ومتاعها الخادع ، وما أقبح من يصبح عبداً لمتاع الدنيا ، ولأنه بغير رحمة الله فى الدار الخالدة الآخرة يكون العذاب والجحيم وبئس المصير .

هى الحياة ولا تحتاج لأكثر من تأمل بسيط فيها وتأمل فى قدرة الإنسان فى مقابل قدرة القادر ومن هذا التأمل يستطيع الإنسان ـ لو صدق مع نفسه ـ أن يعرف الحقيقة ويأخذها كمشعل يضىء له طريق الحياة وقبل أن نتأمل فى قدرة الله هل لنا أن نتساءل عن قدرة البشر : ... ؟

ـ فهل رأينا غنيا دام غناه أو نعم بثرائه أو خلد فى الحياة ... ؟

ـ وهل رأينا غنيا أبعد بغناه الأحزان أو الهموم أو المرض ... ؟

ـ وهل رأينا قويا دامت قوته ... ؟

ـ أو جباراً دام جبروته .. ؟

ـ وهل رأينا عظيما دامت عظمته ... ؟

ـ وهل رأينا حاكما أو سلطانا دام له كرسيه أو تاجه ... ؟

ـ وهل رأينا شابا فتيا دام له شبابه ... ؟

. وهل رأينا فاتنة حسناء دام لها جمالها وبهاها ...؟

ـ وهل رأينا متكبراً أو متعاليا دام له كبره ... ؟

هناك شىء دام وبقى فما هو ... ؟

- ظلم الظالم ، وطغيان الحاكم ، وتجبر الجبار ، وشقاء المستبد ، ونهاية كل متعال ، بقيت هذه علامات ساطعة تؤكد لكل البشر أن نهاية الشر شر ونهاية الضلال ظلام .

وهناك بالمقابل شيء دام خلد على مر الأجيال :

خير الخيِّرين ، وتواضع المتواضعين ، وعدالة الحاكمين وقدوة المهتدين وعظمة العظماء الراحلين ..

فلماذا التعالى ونحن عارية مستردة وكل حى إلى ممات ونهاية ، وأمامنا هذا الإعجاز فى القدرة .

فَمَنْ صنع هذا الكون البديع ... ؟

وهذا العالم المحكم الترتيب ..؟

وَمَنْ خلق هذه السموات وما فيها والأرض وما عليها ... ؟

وما بال هذه النجوم والأفلاك والشمس والقمر ... ؟

وما سر عظمة هذه الرمزيات الإلهية ، وآيات الله فى كونه ... ؟

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾

« سورة الشمس الآيات من ١-٦ »

أخرج منها ماءها ومرعاها وأنبت فيها كل نبت وأرساها .. وشق فيها أنهارها وحلاها وزينها.

وما هذه الآيات الخالدة خلود الدهر ... ؟

ليل زاحف بظلمته ، ونهار يختفى بمعالمه ، ونهار مبهر فى إشراقه ، وليل سوئى فى ظلمته .

نظام مقدر منتظم ، محكم التدبير ، لأنه من صنع القادر القدير .

أليست هذه كلها آيات من صنع الواحد القهار ... ؟

إن التأمل مشعل يضيء كهف النفس وظلمة الفؤاد .

ولنا فى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أسوة حسنة فى تأمله وتعبده وتفكره فى عظمة الله، تقول أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضوان الله عليها ـ : إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال : هل لك يا عائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى ... ؟

فقلت : يا رسول الله إنى لأحب قربك وأحب هواك (أى ما تريد وتهوى) وقد أذنت لك .

فقام إلى وعاء ماء فتوضأ ، ثم قام يصلى . فقرأ من القرآن وجعل يبكى ثم جلس وحمد الله واستمر يبكى حتى بلت دموعه الأرض ، فأتاه بلال ليؤذن بصلاة الفجر فرآه يبكى فقال يا رسول الله : أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال : يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً ، ثم قال : ومالى لا أبكى وقد أنزل علىّ فى هذه الليلة ؟ :

﴿ إِنَّ فِي
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ

ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

«سورة آل عمران : الآيات من : ١٩٠/١٩٥ »

ثم قال رسول الله ﷺ : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

إنها آيات تحمل النموذج المثالى لاستثمار العقل البشرى فى ذكر الله والتفكير فى خلق السموات والأرض ، وتعظيم الخالق جل جلاله .

ولهذا وجب علينا أن نتعلم درس الحمد والشكر وأن نعى أن أدب التفكير فى خلق الله يتطلب منا التأمل الواعى فى عظمة الخالق ، وأن نذكره كثيراً ، وأن نُسَبِّحه بكرةً وأصيلا باللسان ، وبالقلب خوفًا ورجاءً . وأن نَعى أن التفكر فى خلق الله يزيل الغشاوة عن النفس ويمحو منها منابت الإثم والعصيان ، ويقرِّب بينهما وبين أسباب الهدى ومسالك التقوى .

ولا شك أن التأمل المصحوب بالابتهال والتوسل والتضرع إلى الله مفتاح لرحمته ومنفذ لرضاه.

الباب الرابع

المشاعل الوجدانية المميزة للشخصية الإسلامية

الفصل الأول :

مبادئ التفاعل الإيجابى للمسلم

الفصل الثانى :

الموسيقى الوجدانية

الفصل الثالث :

الإعجاز الوجدانى ومستقبل بني إسرائيل

الفصل الأول

مبادئ التفاعل الإيجابى للمسلم

التفاعل الإيجابى للشخصية الإسلامية هو المحور الذى تدور حوله أركان النضج الإيمانى ولهذا يُرَشِّد القرآن عباد الرحمن ومفاهيمهم حول المعانى الروحية للهداية والتقوى وأركان السلوك الأمثل للفوز برضى الله ومغفرته.

وأبرز عوامل التفاعل الإيجابى للمسلم تتمثل فى المبادئ الثلاثة التالية:

١ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الخير.

٢ ـ التعاون على البر والتقوى.

٣ ـ التواصى بالحق والصَّبْر.

هذه المبادئ فى مجملها تُزَيِّنُ أبهاءَ النفس الإنسانية، وتزهر فيها براعم التقوى والصلاح وتُثمرُ قطوفًا دانية من المودة والرحمة بين البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وعقائدهم. وهذه المبادئ ثمرة شجرة الأسوة الحسنة للرسول العظيم ثم إنها أيضًا جاءَت رمزًا للنضج الروحى والوجدانى للشخصية الإسلامية.

أولا: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير والتسابق عليه:

جاءَ هذا المبدأ فى القرآن أمرًا واجبًا، وجاءَ فى السنة النبوية قولاً وقدوة وسلوكًا وأنموذجًا ساميًا يُهتدى به، ويؤخذ بمعاييره لتقنين معانى المعروف وتحديد أشكال المنكر ومظاهره.

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يمثل جوهرا لصفاء ونقاء النفس الإسلامية، وتمهيدا لصناعة مواكب الطمأنينة والاستقرار للبشرية ، ويكلف القرآن خير أمة أخرجت للناس لحمل هذه الأمانة كمشعل يضىء دروب الهداية فيقول الرحمن الرحيم .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

«سورة آل عمران الآية ١٠٤»

وما دامت هذه الرسالة أمانة فى أعناق خير أمة أخرجت للناس ، وهى الأمة الإسلامية فإن عليها دائمًا أن تُنقّى فطرة أفرادها من أمراض النفاق وأعراضه لأن من يدعو إلى الخير وينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف لابد وأن يكون إيمانه صحيحًاخالصًا من علة النفاق لأن المنافق لباسه المنكر .

ويقول سبحانه فى ذلك .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

«سورة التوبة الآية ٦٧»

ويحدد الله - سبحانه - الفارق بين الانقياد للمعروف أو إتيان المنكر ومحصلة كل منهما ونهايته .

فالذى يقصر عن رسالة الأمر بالمعروف يلعنه الله ويغضب عليه .

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى
ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

«سورة المائدة ٧٨-٧٩»

أما الذى يحمل راية المعروف فله النصر هو ومجتمعه لأن الله يدافع عنه، ثم إنه من زمرة خير أمة أُخرجت للناس وفى ذلك يقول سبحانه :

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾

«سورة آل عمران من الآية ١١٠»

الأمر بالمعروف مظلة أمن الأمم :

وتتوافد أوامر السماء بالأمر بالمعروف ، وكأن الله سبحانه العالم بكنه النفس البشرية وأمانها يؤكد على أن الأمر بالمعروف فرض يجب أن يقوم به الفرد والجماعة ، فإذا لم يقم به أحد فى مجتمع ما ، أثم جميع أفراده ، وهذا المجتمع يكون أمره إلى الانحلال ، وروابطه إلى الانفصام والتفكك ما دام هذا المجتمع يرى أفراده المنكر ولا ينهون عنه ، ويهملون المعروف فلا يأمرون به .

ولعل ذلك يدعونا إلى الإعلام عن عموم المعروف وعموم المنكر لكى يعى كل مسلم ما هو المعروف وما هو المنكر .

فالمعروف: كل ما هو متعارف على أنه صالح وخير ونافع من أخلاق وعادات وأعمال تعود فائدتها وبركتها على الأفراد والجماعة معاً ، وليس فيها ظلم ولا بغى ، ولا إفراط أو تفريط .

والمنكر: كل ما هو متعارف على أنه شر وضرر وسىء ، من أخلاق وعادات وأعمال يعود وبالها وضررها على الأفراد والجماعة معًا.

وكقاعدة عامة : يتضح أن جميع المحظورات القرآنية والنبوية تدخل فى مفهوم المنكر ، وجميع الممدوحات والمأمورات القرآنية ، والنبوية يَدْخل فى مفهوم المعروف .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تكليف يخص الفرد والجماعة والدولة ولكل دوره وحدود .

فالدولة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيما يتعلق بالأمور العامة التى لها صلة بحياة المجتمع والجماعات وتحتاج إلى هيمنة وقوة الدولة واجبة للحيلولة دون الشغب والفوضى ، والعيث فى الأرض فساداً ، أو حمل الناس على العمل النافع الذى فيه المصلحة العامة .

إذن فالدولة لها دور هام فى ذلك ، وهو تقنين وتشريع القوانين التى تضمن هيمنة الدولة على الجماعات والأفراد بما يُحقق المصلحة العامة المشروعة التى تُستَمدُّ من الشرائع السماوية والتى تهدف أساسًا إلى تحقق تكافل الجماعات وتضامنها وذلك من خلال تشريع ما يجب وما لا يجب، وما يجوز وما لا يجوز .

وأمَّا الجماعة والأفراد فلهم دور هام فى تحديد معرفة المعروف والأمر به، والمنكر والنهى عنه ، وهذا الدور مرتبط بالأمور الأخلاقية والخاصة الواضحة التى لا يخفى وجه الصواب والحق والنفع والخير والخطأ والباطل والضرر والشر فيها .

ومرتبط أيضاً بالأدوار التى لا ينتج عن القيام بها فوضى أو فساد وإن كان على الأفراد خاصة فى إطار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعدم الإهمال فى واجباتهم التى تخص الآداب العامة أو الاستهتار فى التصرفات والشذوذ فى السلوك أو الوقوف مواقف لا تتفق مع الذوق العام أو المصلحة العامة كل ما يدخل فى المذمومات المنهى عنها .

ونماذج الأمر بالمعروف يمثلها :

الصدق واحترام حقوق الغير ودمه وماله وعرضه والوفاء والجهاد فى سبيل الله والبر وفعل الخير .

ونماذج المنكر يمثلها :

الكذب والنميمة والنفاق وشهادة الزور والغش والغدر والنكث وتولى الأعداء والإسراف والبخل والهرب من واجب الجهاد بالنفس والمال والسعى فى الأرض فسادا.

ولم يأت فى القرآن تحديد لكيفية القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن ذلك متروك لحكمة المسلمين وظروفهم وإن كان الإنسان قد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإن سلوكه فى ذلك رهن ضميره وفطرته وعمق إيمانه، ودرجة نضُج سلوكه بدرجة سمو نضجه الوجدانى .

أما على مستوى الجماعات فإنه تُركَ لها اتخاذ الوسائل الجماعية الكفيلة بأداء هذا الفرض الأخلاقى وذلك من خلال تشكيل الجمعيات المتعددة والمتنوعة الأهداف التى منها الجمعيات الخيرية والصحية والعلمية والتهذيبية والاجتماعية والسياسية والدعائية والدينية وغيرها فى إطار من الخير والنفع والصلاح للمجتمع .

وواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ضرورة لصلاح حال الفرد والمجتمع والدولة، والتقصير عن أدائه يعرض المجتمع بأفراده إلى التآكل والاضمحلال والتلاشى ولهذا أدب المشرع الأعظم المسلمين فى محكم آياته أدبا روحيا ووجدانيا فى هذا الشأن .

فقال تعالى:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

«سورة المائدة الآيتان : ٧٨-٧٩»

وأيضا جاء ذلك فى أحاديث نبوية شريفة نذكر منها .

حديثا رواه الترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﴿ ﷺ ﴾ قال :

(والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم) .

« التاج ج ٥ ص ٢٠٤ »

وحديثاً آخر رواه أبو داود والترمذى عن عبد الله عن النبى ﴿ ﷺ ﴾ قال:

«إن أول ما دخل من النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لايحل لك» ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه من ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض».

وقال الرسول الأعظم ﴿ﷺ﴾ :

«والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على يدى الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم.

«١، ٢، ٣ التاج ٥ صـ ٢٠٥ - ٢٠٢ - ٢٠٤»

وأقرب حديث على أفهامنا ذلك الحديث الذى رواه البخارى ومسلم والترمذى عن أسامة عن النبى ﴿ﷺ﴾ قال :

(يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقول يا فلان مالك ؟

ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقولون : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه) .

(تفسير ابن كثير فى سياق تفسير الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

وليس هناك شك أن بُعْدَ المجتمع الإسلامى اليوم عن هذا الفرض والواجب ومتطلبات قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جعل النظام الاجتماعى وهيكل المودة والرحمة فيه هشّة أو متآكلة .

فها هو البناء الأسرى قد أصابه الاختلال .

وها هو البناء الاجتماعى بما يتطلبه من مودة ومؤاخاة ومرحمة وتكافل قد أصابته قنبلة الانهيار .

وها هو نمط المجتمع الإسلامى أصبح أثراً بعد عين ، وأطلالا بعد صروح،لأن الأمر بالمعروف أصبح قولاً وشعاراً ، والنهى عن المنكر أصبح تَرنُّمًا وانفعالا .

وهكذا تُثمِرُ الشجرة التى تُروى بالضلالات وأنهار الفساد الأخلاقى ، تثمر الفُرقة والانقسام والكراهية والحقد والنفاق والرياء ، فيأكل منها المجتمع وأفراده فتتورم ضمائرهم وتتعفن سرائرهم وتعتم قلوبهم ويتراخى نسيج ترابطهم الوجدانى .

وهكذا أصبحنا كما نرى جموعاً تسير متخبطة ، نُزِعَتْ البركةُ منهم وافتقدوا رحمة الله الرحيم .

ويضاف إلى معزوفة أو منظومة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فعل الخير والتسابق فى أدائه لما فيه من مصلحة لما يتضمنه من مكرمة وبرّ بالآخرين وعون لهم .

والدعوة إلى الخير بمثابة زرع لشجر المودة الذى يظلل المجتمع من قيظ العوز والحاجة ، فيقوى نسيج الوصل الوجدانى ويدعم أركان بنائه ويكفل الأمن ويوسِّع خيمة الطمأنينة فيه ، ويُشيع التواد والتعاطف .

ولهذا يأتى الأمر بإتيان الخير والتسابق عليه فى نصوص قرآنية كريمة منها :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾

«سورة آل عمران من الآية ١٠٤»

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

«سورة الحج الآية ٧٧»

ويوصف منّاع الخير بأنه آثم ومعتد.

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾

«سورة القلم الآية ١٢»

ثانيا : التعاون على البر والتقوى ، والبعد عن الإثم والعدوان :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

«سورة المائدة من الآية ٢»

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾

«سورة المجادلة الآية ٩»

وهذه الآيات الداعية إلى التعاون المنددة بالإثم والعدوان تشكل مصفاة للسلوك الإنسانى المرغوب فيه والمحمود وتقرر مبادئ وجدانية وأخلاقية واجبة لصلاح أمر المجتمع والفرد والجماعة .

ومن الضرورى تحليل معنى ومدلول الألفاظ القرآنية التى وردت أمرًا ونهيًا .

فالتعاون مطلوب ومحمود ومأمور به ، وهو التعاون على البر .

فما هو البر ؟

البر : هو كل ما فيه قربى إلى الله ونفع للناس يقول تعالى :

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

«سورة البقرة من الآية ١٧٧»

وما هى التقوى ؟

التقوى : تعنى التوقى من غضب الله وسخطه باجتناب نواهيه واتباع أوامره.

وما هو الإثم والعدوان ... ؟

الإثم: هو كل ما فيه مخالفة لأوامر الله .

والعدوان : هو كل ما فيه تجاوز على حدود الله وبغى على دم الغير وعرضه وماله وشرفه وأمنه .

والفرد له دورد فى رسالة البر والتقوى . ومقاومة الإثم والعدوان وهو بمثابة لبنة من لبنات الجماعة الإسلامية التى عليها واجب التعاون الذى يعنى التضامن والتكتل والتجمع والمشاركة فى البر والتقوى والتعاون أيضًا فى مواجهة الإثم والعدوان .

وهذا من شأنه تقوية البنيان الاجتماعى ودعمه .

لأنه إبعاد لهذا المجتمع عن كل ما فيه ضرر وشر وخطر وأذى يؤدى إلى التفكك واستشراء الشرور .

ثالثا : التواصى بالحق والصبر والمرحمة :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾

« سورة البلد الآيات من ١١ - ١٨ »

فهذه الآيات الكريمة تضع دستوراً وجدانيا للتواصى بين الجماعات الإنسانية، فهى تدعوا لاقتحام العقبة التى من شأنها تحرير الرقاب من العوز والحاجة وتجعل المؤمن الصادق متجملا متزينًا بالعطاء بلا حدود.

رحيماً رحمة منزهة عن الهوى متقلداً قلادة الصبر التى تُضيف مزيداً من عطاء الإيمان فى اليسر والعسر والسّراء والضرّاء .

إن أحرف هذه الآيات بمثابة مشاعل إيمانية تقرر العدل والأمن والطمأنينة فى إطار الجماعة فليس هناك قوى إلا بالحق أو ضعيف دون عون مساندة وأن هناك تكافلا فى النوائب والملمات وأيضاً هناك برّ وإحسان وعون وحسن معاملة للضعيف والأقل عدداً ومالا .

فالتواصى يعنى تواصى المسلمين بعضهم ببعض بالتزام الصفات والأخلاق السامية ومساعدة بعضهم البعض ، وعدم التقصير أو الإهمال والغفلة عن السمو فى السلوك والأخلاق ، والتواصى بالصبر والمرحمة صفة من الصفات التى يكتمل بها إيمان المؤمن الصالح وهو تأصيل لجذور شجرة الوجدان التى تَظلل المجتمع المسلم .

ومحصلة ذلك تؤدى إلى التواصى بالحق بين أفراد المجتمع الإسلامى بحيث يكون هذا التواصى هو السائد الضابط لأعمال الناس أفراداً وجماعات ودولة ، ويشكل أقوى ضمانة لأمن المجتمع وحقوق أفراده وطمأنينتهم .

والصبر يعنى الصبر على ما يقابل الإنسان أفراداً أو جماعات من محن ومصائب وطوارئ لأن الجزعين أمام المصائب يفتحون فى نفوسهم وصفوفهم ثغرات تنفذ منها الآثار السيئة والضارة وتؤدى بهم إلى الوهن والضعف والفشل والبلبلة .

والتواصى بالصبر يدفع الناس إلى أن يشد بعضهم أزر بعض ويبث روح القوة والجلد والتحمل فيما بينهم ويجعلهم يقابلون المصاعب وهم مالكون لقواهم المعنوية فيستطيعون دفع الشر والضرر والخطر .

وبما يقلل آثار النوائب والخطوب ، وهذا يحفظ على المجتمع الإسلامى كيانه ويدعم قوته .

التواصى بالرحمة والمرحمة :

إن التواصى بالرحمة من أقوى أسباب التعاطف والتواد بين أفراد المجتمع، والتواصى بها له آثار سامية ، حيث لا يقع ظلم أو غبن أو جنف على ضعيف ، وحتى لا يُهْمَلُ محتاج من البرُ والعون .

وهكذا يركز القرآن الكريم على دعم المجتمع الإسلامى بالحق والصبر والمرحمة تلك الأسلحة الوجدانية والروحية التى تُرسى قواعد القوة والعزة للفرد وللجماعة وللمجتمع .

فليس الأمر بالمعروف والتواصى بالخير والمرحمة والتعاون على البر والتقوى إلا دستوراً وميثاقاً وأمانة يكلف بها وجدان المؤمن الذى سمى وشرف شرفا خاصاً بمثالية الأوامر المحمودة والنواهى المرفوضة التى جاءَت فى آيات القرآن وسنة الرسول الأعظم ﷺ .

وهذه المضامين السامية تميز الوجدان المسلم الذى يَخْلد سموه ويتعاظم سلوكه منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً وهذا السمو وذاك التعاظم دائم

متجدد فى ضمير ووجدان كل الأجيال المسلمة حتى يرث الله الأرض وما عليها وذلك للآتى :

- أن مضمون الأوامر والنواهى ليس من عند بشر وهو منزل من عند الله العالم بكنه النفس المؤمنة وبما تحتاج إليه لتستقيم الحياة .
- أن سنة الرسول الأعظم محمد ﷺ جاءَت فعلا وقدوة وسلوكًا وممارسة فكان طول حياته النبوية وحياته قبل أن يُبعث رسولا نموذجًا فريداً للسمو الوجدانى والروحى وكان خلقه العظيم نموذجًا يحتذى به ويُهتَدى بقدوته ، ولم تأت السنة النبوية بشىءٍ يُنْتَقَدُ أو يتقادم مع تغير ظروف الأجيال .

الفصل الثانى
الموسيقى الوجدانية

المعيار القرآنى مُركَّب من أسرار وجدانية تعزفها موسيقى داخلية تهز أبهاء الفطرة وتطْرب أعماق النفوس .

فموسيقى القرآن تقطر من كل حرف ومن كل جملة ومن كل آية ...

وهذا سر من أسرار معجزة القرآن الذى لا يشاركه فيه أى تركيب أدبى مهما كان ، ويحس الإنسان هذه الموسيقى دون عناء .

لهذا يقول العزيز الحكيم :

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

«سورة الأعراف الآية ٢٠٤»

لأنه الخالق للنفس العالم بتكوينها يعرف أن هذه الموسيقى هى لغة الفطرة وزاد الوجدان .

نذكر من هذه الموسيقى تلك الموسيقى الوجدانية التى أطربت النجاشى ملك الحبشة الذى لجأ إلى بلاده المسلمون الأوائل .

فعندما ذهب عمرو بن العاص على رأس وفد إلى النجاشى ليطلبوا منه إعادة هؤلاء إلى أهلهم وذويهم لأنهم أعلم بهم شأنًا .

جاءت عدالة النجاشى ليجمع هؤلاء وهؤلاء ليسمع ، ويحكم .

وجاءَ عدله ساميًا عندما استمع إلى سورة مريم وجاءَت الآيات نافذة إلى عقله الراجح وقلبه المؤمن ووجدانه الفطرى .

ونحس نحن ذلك بعدما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان عندما نقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة مريم .

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ
إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

«سورة مريم الآيات ١٦-٢٦»

لقد كان لوقع كلمات القرآن فى نفس النجاشى وقع السحر حتى أن قطرات من الدمع تساقطت من مقلتيه فى تعبير فطرى دافق لإعجاز كلمات الرب وجلالها .

ثم تزف إلينا الموسيقى التاريخية الإعجاز الوجدانى لقصص السابقين لتدخل إلى أعماق النفس البشرية فى كل عصر مهما كان تقدمه أو ارتقاؤه .

فسيدنا زكريا ﴿عليه السلام﴾ يقول لربه :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾

«سورة مريم ، الآية ٤»

وما يصفه إلينا الإعجاز القرآنى من سحر دافق وإحساس كامل متكامل حينما يقص علينا تلك المعزوفة الخالدة عن موسى .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

«سورة طه الآيات ٧٧-٧٩»

فكل كلمة تمثل بنياناً موسيقياً قائماً بذاته تنبع فيه الأنغام من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة سلسة سهلة تنفذ إلى أبهاء النفس فتشع فيها الطمأنينة والسكينة .

وتعزف آيات القرآن معزوفة الأمل والإشراق إلى أولئك المؤمنين فى كل عصر وتُحذِّر المكابرين فى كل أوان ..

فيقول عزَّ وعلا قولته الخالدة وآياته المعجزة عن الساعة .

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾

«سورة طه الآية ١٥»

إن هذه التراكيب المعجزة تتمثل فى كلمات تصب فى الأعين خشية ، وفى القلوب إشراقًا ، وفى النفوس المؤمنة آمالا فى رحمة الرحمن الرحيم .

ذلك لأن الكلمات ليست فى حلاوة الشعر أو فى طلاوة الأدب العربى فقط ولكنها كلمات ذابت فى يد خالقها واصطفت وتراصت فى قوالب وأطر فريدة وفق نسيج متميز ووحدة غاية فى الإبداع والجمال شكلا وغاية .

وأيضاً من سحر حلاوة الكلمات القرآنية فقد ذاب الجبار وخشع وتقلص وخمد بركانه وخشع فؤاده وسكن عنفوانه ، عندما أنصت وارتقى بفطرته ذلك هو عمر بن الخطاب الذى كان ركنًا ركينًا فى ساحة الشرك .

ذلك الفتى المدلل القوى الذى عزم على أن يخلص قريشًا من محمد وصمم على الذهاب ليقتله ثم يلاقيه نفر من قريش ويعلم بوجهته ويطلب منه أن يصلح حال بيته أولا فأخته قد أسلمت وآمنت بمحمد ، لقد عزم عمر على الذهاب إلى قتله .

فيغيّر عمر وجهته ليتيقن من الأمر وسرعان ما يذهب إلى بيت أخته فيسمع قراءة لم يعهدها .

فيدخل ويفاجئ أخته وزوجها وثالثهما الذى يقرأ . وسرعان ما شاهد عمر فاختفى .

فيسأل عمرُ أخته : « ما هذه الهينمة التى سمعت » .. ؟

فتقول له : إنها هينمة لا تضر .

فيضربها ويُسيل الدم من وجهها ، ويجذب الصحيفة التى كانت تقرأ فيها إلا أنها صممت ألا يلمسها لأنه مشرك فطلب منها وهو يمسح الدم عن وجهها أن يتطهر ، ثم يقرأ فى الصحيفة .. من سورة طه :

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ
فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ
ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾

«سورة طه الآيات ١-١٢»

فما أعذب ما قرأ وما أرقى ما طرب به . وما أحلى ما قيلتل وتلا . وما أسلس ما عبَّرت به الحروف، إنها جمال اللفظ وعذوبة الكلمات .

فأشرقت فى نفسه أنوار أحالت ظلمات الجاهلية إشراقات فى بهو النفس وساحة الوجدان وخرج عمر من عند أُخته يحمل معزوفة الإيمان ليشهد أمام محمد ﴿ﷺ﴾ ان لا إِلَهَ إِلا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ .

إن معزوفة الوجدان والإعجاز الوجدانى فى القرآن منارة لكل الأزمان تهتدى بها سفن النفس التائهة فى بحر الدنيا ، وتنشدها أفلاك البشر المتلاطمة فى محيطات الوجود .

ودائماً وأبداً ستبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماماً ، فهو انفراد وتميز بلا تبرير أو تفسير سوى أن لها أسراراً لا يمكن للبشر الوصول إلى كنهها، لأن مصدرها إلهى وهى من قول عزيز حكيم .

وإذا شئت فادع فلاسفة الكون ومبدعى الوجود ليعزفوا أو يتفلسفوا ويأتوا بمثل ما تأتى به هذه الآية :

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾

«سورة غافر، الآية ١٥»

آية لها قصة ، ولها مدلول ، ولها معنى فى نغم ينساق فى لحن وجودى دينى دنيوى يعطى ويغدق ، ينساق ويطرب ، يهدى ويتسامى .

وكذلك فلنقرأ فى منظومة الخلق حينما يقول العزيز الحكيم :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

«سورة الأنعام من الآية ٩٥»

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

«سورة الأنعام من الآية ٩٦»

سبحان هذا العظيم القادر الخالق المبدع المصور رفيع الدرجات البديع الذى به قامت الحياة ، وتأتى آياته القرآنية بتكوينها وصياغتها بدلالات على عظمة صاحب الجلال والإكرام ، وتدلى بإعجاز يؤكد عجز العقل البشرى عن إدراك كنه الخالق .

وتتوالى المنظومات الوجدانية وتتوافد فى إيحاءٍ منظم إلى العقل

البشرى لتصف القدرة الإلهية فى إيقاع يتناسب والتكوين الآدمى فيقول - عزَّ وجل-:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

«سورة الأنعام الآية ٥٩»

والإعجاز الوجدانى فى آيات القرآن الكريم له جرسٌ يشع منه الجلال والعظمة والرحمة ودلالات القدرة فى نظام فريد لا يماثله نظام لأنه من صنع القادر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض أو فى السماء .

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾

«سورة طه الآية ٥»

فهى منظومة القدرة المهيمنة على كل الخلق والوجود فى معزوفة من رحمة الرحمن .

والإعجاز الوجدانى يفتح الباب على مصراعيه لتربية العقل وإذكاء الإدراك فتأتى الآيات المعجزة مؤكدة على أهمية العلم والقراءة التى تتمازج حواسها متمثلة فى السمع والبصر والفؤاد لتتناغم وتتوافق روافد العلم والمعرفة وتكتشف قوانين الكون ليستثمرها الإنسان فى إعمار الكون .

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

«سورة العلق ، الآيات من ١-٥»

فهنا تأتى موسيقى القرآن مؤكدة وملحة على الارتقاء بالإنسان فكراً وعقلا وروحًا لتحقيق النضج الروحى والإدراكى وحتى يستطيع ملاحقة المتغيرات واستكشاف الأسباب التى تيسر له حياته وتهئ لارتقائه .

ثم إن الإعجاز الوجدانى يشكل منظومة وجدانية تبث مواكب الجلال الإلهى .

ونلحظ ذلك عندما ننصت إلى الآية الكريمة :

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾

«سورة هود من الآية ٤٤»

فهنا تتوافد علينا موسيقى تعزف ألحان الماضى البعيد يوم أن كان طوفان نوح ﴿عليه السلام﴾ وترسم الموسيقى صورة للدنيا وللوجود وهو مغمور فى الماء كله بحضارته وبشره إلا تلك السفينة التى حملت من حملوا شعلة الإيمان .

وذلك البيت العتيق الذى رفع على أكمة حمراء حتى لا يغرق لأنه البيت المعمور .

ثم تتوافد صور الإعجاز فى جلال القدرة التى تقول للشىء كن فيكون ، فيأتى أمر الله وقُضِى الأمر بعد وقع الرعود ثم الصمت والسكون والهدوء ، وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القضية إلى نهايتها .

وها هى كلمات هذه الآية تعطى إيقاعًا وأنغامًا وحركة ودلالات .

والإنصات إلى آيات القرآن هو النافذة التى تعبر منها موسيقى القرآن .

فالاستماع يعنى التلقى ، والإنصات يعنى التدبر والاستجابة .

وها هو ذا الوليد بن المغيرة فيلسوف عصره وخبير زمانه باللغة العربية وفصاحتها وبلاغتها حينما أنصت إلى محمد ﴿ﷺ﴾ وهو يقرأ القرآن فلم يستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن رغم كفره فيقول :

والله إن لقوله لَحَلاوة ، وإن عليه لطَلاوة وإن أعلاهُ لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه .

وإنها موسيقى الجلال والعظمة والرحمة والقدرة حينما تتدفق فى إيقاع معجز يعجز أمامه إبداع الفلاسفة ويصغر أمامه تعالِى المتعالين .

إنها الموسيقى التى تتفق وجلال المواقف الإلهية التى تُعبِّر عنها الآيات .

فموسيقى الوعد وموسيقى الوعيد وموسيقى مواقف الحزن ومواقف الفرح ومواقف البشرى ومواقف الخسران المبين ومواقف العبرة والحكمة موسيقى لا تموت فيها المعانى ولا تتحجر الكلمات أو تتسطح العبارات .

إنها الموسيقى التى تحيى القلوب لحظة الإنصات فإنها تخلق جوا من الصفاء الذى ينزع الإنسان فيه نفسه من شواغل الدنيا وهموم الأيام الرتيبة ويرتد فيها بفطرته بكرا ويرد فيها نفسه إلى شفافيتها ، فيتذوق طعم الروحانيات ويشم عبير الإيمان ويداعب وجدانه إيقاع الجلال الإلهى فيأمل فى وعد ربه الحق .

ولأنها موسيقى الأدب الإنسانى التى من عند حكيم عليم نجد فيها السمو حتى فى المواقف التى يصعب فيها التعبير الإيجابى ، إلا أن الله المعجز عبَّر عن كل المواقف فى جلال وعظمة حتى إنك حينما تقرأ أو تنصت إلى القرآن وهو يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة تسمع إيقاع أنغام الأدب والرحمة والرقة والكلمات المهذبة والأسلوب الرفيع المستوى .

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾

«سورة الأعراف من الآية ١٨٩»

فدفق الصور الجمالية والإيقاع الرائع يأتى من أحرف كلمة تغشاها أى أن يمتزج الذكر والأنثى كما يمتزج ظلان وكما يغشى الليل النهار، وكما تذوب الألوان فى بعضها .

فهذا اللفظ العذب الذى ينطق بإيقاع من التداخل الكامل بين أنثى ورجل لهو ذروة الإعجاز الوجدانى المصور فى إيقاع مهذب وسام .

وألفاظ القرآن الكريم لها رنين وأصداء وصور وحركة :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾

« سورة التكوير الآيتان ١٧/١٨ »

فتجد فى « عسعس » أربعة حروف تصور الليل تصويراً إيقاعيًا ، ثم والصبح إذا تنفس تعطى إيقاعًا حركيًا بضوء الفجر مسموعًا ومرئيًا ، حتى كأننا نسمع إيقاعًا ونشاهد إبداعًا يمثله منظومة الإشراق بما فيها من زقزقة العصافير وصياح الديكة .

وعندما يأتى الموقف القرآنى عند النذير أو الغضب فإنك تجد وتسمع الألفاظ وكأنها تتفجر والأحرف وكأنها تزمجر .

﴿ وَأَمَّا
عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ
سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ
كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ ﴾

« سورة الحاقة الآيتان ٦-٧ »

إنها موسيقى الوعيد ، وها هى الريح تصرصر ، والخيام تتمزق ، والأرض باتت خرابًا .

فالألفاظ فى هذا الموقف ترسم صورة سريعة الإيقاع ، واضحة اللفظ ، محكمة البناءِ والتركيب ، والأحرف لها وقع وصوت وصورة وحركة .

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم الذى نزل بالعربية يتميز بخاصية منفردة فى الإيقاع والإيحاء والتصوير بمجرد أن تلامس الأُذن والوجدان ، وقبل أن يتدبر العقل المعنى ، يُحْدِثُ التركيب الموسيقى فى النفس المنصتة الخشوع والخضوع والسكينة . وعندما يبدأ العقل فى فهم المعنى وإدراك المضمون فإنه يكتشف أَشياءَ جديدة فتزداد النفس خشوعًا ويزداد المنصت سكينة .

إنها التركيبة الفريدة للبنيان القرآنى وهى الإعجاز الذى لا يطاوله إعجاز ويبقى القرآن معجزة فى كل مجال وسيظل معجزة الرسول العظيم ﷺ حتى يرث الله الأرض وما عليها.

الفصل الثالث

الإعجاز الوجدانى
ومستقبل بنى إسرائيل

القرآن كتاب لا يماثله كتاب أو كتب .

كتاب فيه معزوفة خلق السموات والأرض ومنظومة الوجود من الأزل إلى الأبد .

وهذه المعزوفة وتلك المنظومة تثير فى القلب الإحساس الغامض من جراء اصطفاف الحروف فى السمع بنمط فريد متميز تلك الأحرف التى تعزف بلا آلات وبلا قواف وبلا بحور أو أوزان .

إنه كتاب فيه تتناغم الأكوان وتعزف لحن الوحدانية الأعظم (لا إلَهَ إلاَّ الله) .

وتترنم الخلائق وتسبح الملائكة وفق إرادة العلى القدير الذى خلق كل شىءٍ فأحسن وأبدع .

فسبحان المصور البارئ البديع ذى الجلال والإكرام .

لقد تضمن الإعجاز الوجدانى الذى تتميز به كلمات القران اهتمامًا خاصاً «ببنى إسرائيل » فبنو إسرائيل طائفة من الخلق لهم معزوفتهم الخاصة التى بدأت منذ عهد أبيهم يعقوب « إسرائيل » وظلت على مدى القرون الماضية ومازالت تعزف إيقاع النرجسية « العنصرية » ويشاءُ العلى القدير ألا ينتهى لحن وجودهم إلا عند بزوغ علامات الساعة .

فما هى القصة الخالدة التى بُنِىَ عليها إيقاع معزوفة بنى إسرائيل ... ؟

فى عصر كانت فيه الممالك ممالك مدن كان النمرود ملكاً لمدينة « فدام أرام» بأرض العراق .

وولد إبراهيم بعد طوفان نوح ﴿عليه السلام﴾ بألف ومائتين وثلاثة وسبعين عاماً .. وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين سنة .

«القرطبى ٧٥ / الأنعام»

وكان أبوه آزر نجاراً يصنع التماثيل الخشبية إلا أن هذه التماثيل كانت تباع وتشترى على أنها آلهة ، وكانت توضع فى ردهات البيوت والدور ويعبدها أهل كل بيت ، وكانوا يتقربون بها إلى إلههم الأعظم النمرود رب الأرباب .

وكان إبراهيم فتى مستقيمًا يحمل فى كوامنه فطرة صافية وقلبًا نابضًا بالتمرد على هذا الهوس ، وذاك الجهل ، فكيف يصنع الإنسان ربه أو كيف يشتريه ... ؟

أيشترى قطعة حجر ثم يسجد لها ... ؟ وإذا كسرت استبدلها بأخرى .

لم يتصور إلهًا يكسر ، أو إلهًا يُبَاع ويشترى . فخرج إلى الخلاء يبحث عن الحقيقة وملك الملوك، وفى النهاية هدته فطرته إلى رب الأرباب ، وعرف الله وعرف الوحدانية وأنه لا إله إلا الله الذى به استقامت الحياة وينتظم الوجود ، وعرف أن النمرود إله زائف وأن الآلهة التى يصنعها أبوه وأمثاله تجارة خاسرة وضلال مبين .

هنا أعلن إبراهيم موقفه الإيمانى وما أعظم الإعجاز الوجدانى للقرآن حينما تعزف الأحرف وتُبْدع الكلمات :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

«سورة الأنعام ، الآية : ٧٩»

ما أبدع الموسيقى التى تنساب من هذه الآية ! عذبة إلى الروح ، قوية إلى الوجدان ، ذات جلال إلى كل الوجود والكائنات .

ويُعِثَ خليل الرحمن إبراهيم ﴿عليه السلام﴾ ودعا إلى الوحدانية .

وكان التحدى من النمرود الذى ينعم فى ألوهيته الكاذبة ، وفى إطار منظومة التحدى ترسم لنا أحرف القرآن لوحة جمالية ناطقة حينما تكون المناظرة والمجادلة بين إبراهيم والنمرود .

فيطلب إبراهيم من النمرود مادام إلهًا وقادرًا أن يأتى بالشمس من المغرب .

فيقول تعالى :

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾

«سورة البقرة من الآية ٢٥٨»

تعبير رائع وسمو فى اللفظ والحرف والمعنى ، تعبير معجز « فبهت الَّذِى كَفَرَ » .

فكيف له أن يأتى بالشمس ويجعلها تشرق من المغرب بدلاً من المشرق..؟!

ولم يكن أمام النمرود مفر من محاولة الخلاص من هذا الذى يقضى على ألوهيته وعظمته .

فها هو ذا النمرود يَسْجِن إبراهيم حتى اليوم المحدد لإحراقه ويضعه فى المنجنيق ويقذفه فى النار الملتهبة الهائلة .

وكان فى استطاعة الله القادر أن يحميه من كيد النمرود الكافر إلا أن الله أراد لمعزوفة الوجدان أن تتصل بالأجيال وتزف فى ملكاتهم لحن الربوبية الأعظم وتسبيحة الله الواحد القهار.

هنا تتعالى إيقاعات الأحرف وتنتظم وتنسجم كلمات الخلود ويأتى

تراص الأحرف فى الأسماع بنغم تتسامى فيه إبداعات القدرة ومشيئة القادر.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

«الأنبياء من الآية ٦٩»

هل هناك ما يسترو فى الوجود يستطيع أن ينظم هذا الإيقاع وأن يكون لهذا الإيقاع هدفٌ أو غاية ... ؟ وتستجيب له الماديات مثل تلك النار التى ازدادت اشتعالا إلا أن إبراهيم فى داخلها ينعم بالبرد والسلام .

ويخرج إبراهيم من النار مبتدئا رحلة الوحدانية والرسالة تصحبه سارة زوجته الطاهرة وابن أخيه لوط بن هاران الأصغر وزمرة من المؤمنين حيث يستقرون بأرض كنعان «فلسطين» ويقول العزيز الحكيم :

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

«سورة الأنبياء الآية ٧١»

ويبعث لوط برسالة إلى أهل أرض سدوم ، بجوار البحر الميت ، ليدعوهم إلى التوحيد والبعد عن المعاصى والفواحش التى يرتكبونها وحيث إنهم كانوا يأتون الرجال ولا يأتون النساءَ ، ولما عصوا أصابهم ما أصابهم .

ويقول العزيز الحكيم :

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

«سورة هود الآيتان ٨٢-٨٣»

فما أعظم الصورة الوجدانية التى تُبرز إنجاء إبراهيم ولوط من النمرود، ورحيل إبراهيم إلى أرض مباركة ، فها هى مواكب الإيمان تستقر فى أرض كنعان.

ويكلف لوط برسالة إلى أهل سدوم وتنهى الرسالة بالعقاب وما أعظم ما حملته أحرف الآيات من صور ورسوم لها صداها فى الوجدان والأسماع .

أما خليل الرحمن الذى تشاءُ العناية الإلهية أن يذهب إلى مصر ومعه زوجته الحسناءُ سارة التى يسمع الفرعون عن جمالها الأخاذ ، فيرغب فيها .

إلا أن عناية الله كانت ترعاها وخرج إبراهيم وسارة من مصر بعد أن أهداهما الفرعون أميرة مصرية هى « هاجر » .

وعاد إبراهيم إلى أرض كنعان .

ولَمَّا كانت سارة عاقراً لا تلد فلقد وهبت هاجر لإبراهيم التى أنجبت له «إسماعيل » ﴿عليه السلام﴾ .

وشاءَت معزوفة السماءِ الخالدة أن يهب الله إبراهيم على الكبر « إسحاق » وجاءَت ملائكة الله تبشر إبراهيم وسارة بابنهما (إسحاق) .

فضحكت سارة وقالت : عجوز عقيم تلد ... ؟

فردت الملائكة بأنها إرادة الحكيم .

ويصور القرآن الكريم فى سورة الذاريات هذا الإيقاع القدرى على إدراك ووجدان سارة .

يقول تعالى :

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

«سورة الذاريات الآيتان ٢٩-٣٠»

وتكتمل المسيرة الوجدانية فَيُؤمر إبراهيم بأن يحمل هاجر وابنها إسماعيل إلى الأرض المباركة فى مكة .

وتعزف أحرف من نور ملحمة خالدة باقية آثارها تشهدها الأفئدة والأرواح حينما يلبى الناس دعوة إبراهيم الخليل الخالدة :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

«سورة إبراهيم، الآية : ٣٧»

وتتفجر زمزم ، ويتوافد الناس . ويتزوج إسماعيل .

وقبل أن يموت خليل الرحمن إبراهيم قام هو وإسماعيل بإعادة بناء قواعد البيت العتيق .

ويقول العزيزالقادر :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

«سورة آل عمران ، الآية ٩٦-٩٧»

وينجب إسماعيل أسباطه :

نَابت ، قيدار ، أدئيل ، مبسام ، مشماع ، دومه ، مسا ، حدار ، تيما ، يطور ، ناقيش ، قدمه .

وعاش إسماعيل ﴿عليه السلام﴾ مائة وسبعاً وثلاثين سنة ودفن بمكة. من أنباءِ الرسل (عبد السلام محمد بدوى) ج١ كتاب الشعب ١٩٨٢ ص ١٣٠) .

وعلى الجانب الآخر شبَّ إسحاق الذى ولد سنة ١٩٥٣ قمرية ق:م ، وبقى فى أرض كنعان ، وتزوج من رفقة بنت بتوئيل وولد له عيصو ويعقوب .

وتسجل التوارة مقدم إبراهيم فى سفر التكوين ١٢ : ١٠ ووفادة إسحق فى سفر التكوين ٢٦ : ١ وكذلك تسجله الآثار الفرعونية للأسرة الثانية عشرة ٢٠٠٠ـ ١٧٨٥ ق : م .

وشاءَت إرادة الله أن يتزوج عيصو ابنة عمه إسماعيل (نسيمة) ويعبر إلى الروم ويستوطنها فكل بنى الأصفر ـ الروم ـ من ولده وكثرت ذريته فى تلك البلاد .

ثم يستنبئ من نسله أيوب وبشر « ذو الكفل » ، فأيوب هو ابن أموص ابن تارح بن روم بن عيص بن إسحاق وكانت أمه من ولد لوط بن هاران أخى إبراهيم .

« من أنباء الرسل ـ عبد السلام محمد بدوى ـ كتاب الشعب ص ١٩٠ »

وكان أيوب رجلا طويلا عظيم الرأس ، جعد الشعر ، حسن العينين والخلق ، قصير العنق ، غليظ الساقين والساعدين .

ولقد عاش أيوب خمسًا وتسعين سنة وحضرته الوفاة وبعث الله بعده بشر ابن أيوب نبيا وسماه الله « ذو الكفل » .

« من أنباءِ الرسل ـ عبد السلام محمد بدوى ص ١٩٩ »

وتعود المنظومة الإلهية حيث النبوة من نصيب يعقوب « إسرائيل » الذى يرث بكورة النبوة من أبيه إسحاق وينجب اثنى عشر وَلَداً هم :

١ ـ رأوبين . ٢ ـ يهوذا . ٣ ـ شمعون .

٤ . لاوى.	٥ . يَشجر .	٦ . روبالون .
٧ . يوسف .	٨ . بنيامين .	٩ . دان .
١٠ . نفتال .	١١ . جاد .	١٢ . أشير .

وتكتمل مسيرة إبراهيم الخليل ﴿عليه السلام﴾ فيتخذ زوجة ثالثة هى «قطورة» التى ولدت له : زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحا .

والابن الرابع « مديان » هو الذى نُسِب إليه قوم شعيب ﴿عليه السلام﴾ لأنهم من نسله . (التوراة ... الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين)

«قصص الأنبياء للثعلبى والقرطبى ٨٦ / الأعراف»

وبعث فيهم شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم .

وعندما عصى قوم شعيب دعوته إلى التوحيد والانتهاء عن مفاسدهم فى إنقاص الكيل والميزان نزل فيهم قضاء الله . ويقص القرآن الكريم هذا القصص الرائع :

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

«سورة هود ، من الآية : ٨٤»

ولما عصوا وعاندوا :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

«سورة الأعراف الآيتان ٩١ -٩٢»

وأُرسل شعيب بعد ذلك إلى أصحاب الأيكة وكانوا بقرب مدين « بادية

مدين ، وكانوا مفسدين فى الأرض ، ونهاهم شعيب عن الإفساد وألا يبخسوا الناس أشياءَهم فكان ردهم عنادا وكفراً ، وتحدوه وقالوا :

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ آية ١٨٧ ،

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾
« سورة الشعراء الآية ١٨٩ »

واكتملت رحلة إبراهيم الخليل فى روافده الثلاثة :

إسماعيل من هاجر .

وإسحاق من سارة .

ومدين من قطورة .

وتدق إيقاعات أحرف القرآن وإعجاز كلماته السرمدية وتَدْفُقُ نبضًا يَعْبُرُ بنا عبر الأجيال لينشد معزوفة جديدة يسمع التاريخ أصداءَها عَبْرَ قوالب وجدانية تنفذ إلى فطرة كل الأجيال .

وتذوب الأجيال فى محيط الإنسانية والآدمية وتتداخل فى إطار من العبودية لرب الأرباب الذى لا شريك له .

وتتسامى العقول الذكية فوق العنصرية والنرجسية فى نموذج من الأخوة دون تفرقة، والمحبة دون استعلاء .

ولكن شواهد التاريخ واجهت إعصاراً وهوساً من أبناءِ يعقوب « إسرائيل ».

إنهم عبر الأجيال لم يذوبوا فى بوتقة الآدمية والإنسانية ، وبدلا من عبادة الله عبدوا أهواءَهم التى تضعهم فى مراتب أعلى من كل البشر وفى

موقع يرتقى فوق كل العالمين بزعم أنهم خيار الله وصفوته وأن البشر جميعا رعاع وخدم وعبيد لهم ، وتوارثوا هذا الهوس جيلا بعد جيل .

ولابد لنا من متابعة موكب الأجيال عبر أسباط يعقوب وإسماعيل، ويوسف الصديق هو مقدمة القصة عندما ألقاه إخوته فى البئر والتقطه السيارة وبيع فى مصر ،ووضع فى السجن ثم أصبح عزيزا لمصر وأمينا لخزائنها .

ويقول فى هذا قرآننا الكريم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

«سورة يوسف ، الآيتان ٥٦-٥٧»

وتنتهى قصة يوسف ﴿عليه السلام﴾ بقدوم أبيه وأمه وإخوته وأهله وعشيرته فى ثلاث وسبعين نسمة يدخلون مصر ويقيمون فى أرض جاسان بمحافظة الشرقية عند بلدة صفت الحنة حاليا وحتى مدينة فاقوس ويتناسلون ويكثرون حتى يُبْعَث موسى ويصبحوا قرابة المليون من بنى إسرائيل .

ويخرجون من مصر بقيادة موسى وهارون ثم يبعث فيهم من الأنبياء نبياهما داود وسليمان عليهما السلام .

وتنعاظم فى أفكارهم فكرة الاستعلاء وأنهم المختارون والصفوة وأنهم خارجون إلى أرض الآباء والأجداد وإلى الأرض التى وعد الله بها إبراهيم خليل الرحمن وكأن وعد الله لإبراهيم قاصر على أبناء إسحاق ويعقوب ولا يخص أبناء إسماعيل ومدين فهم وحدهم أحباء الله وصفوته .

وتكبر هذه الأكذوبة فى هوى الأجيال ويتمسكون بها ويتوارثونها جيلا بعد جيل حتى إنهم كانوا يقتلون أنبياءهم الذين يدعونهم إلى الوحدانية والصلاح والتقوى ، أو ملوكهم الذين يسوون بينهم وبين كل الخلق فقتلوا أرميا ، وزكريا ، ويحيا ، وهموا بصلب المسيح الذى دعاهم إلى الوحدانية والمحبة ودعاهم إلى تطهير النفس وتخليصها من الأهواء والعنصرية ، وكذبوا وعصوا واستمروا متعصبين يدينون بهوى النفس وحب الذات .

وعلى الجانب الآخر بعث محمد بن عبد الله ﴿ﷺ﴾ من نسل إسماعيل ﴿عليه السلام﴾ فكذبوه وآذوه ونافقوا وعصوا وكانوا معتدين .

وظلوا على عنصريتهم برغم أن الدين لله وأن محمداً ﴿ﷺ﴾ ناشدهم أن تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به أحداً ولكنهم استعلوا .

فكيف تناغمت المعزوفة الوجدانية فى التعبير عن سلوك بنى إسرائيل العنصرى عبر الأجيال ... ؟

لقد أنعم الله على بنى إسرائيل نعماً خاصة . فيقول الرحمن الرحيم :

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

«سورة البقرة آية ٤٧»

كانت المعزوفة الإلهية تؤكد أن الله أسبغ على بنى إسرائيل نعمة التفضيل على العالمين وخصّهم بأن بعث فيهم عدداً كبيراً من الأنبياء :

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾

«سورة البقرة آية ٢١١»

إيقاع رمزى يخاطب كل أجيال اليهود ، لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم ، ولأن شرف الأصول يسرى إلى الفروع .

إيقاع رمزى يغزو العقول الحكيمة وليكون الصدى لمن عنده عقل رشيد أن يتصف بما يتناسب وتلك النعم ويحفظ ذلك الفضل .

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

«سورة الدخان الآيتان ٣٠-٣١»

وتعطى هاتان الآيتان وقع طبول الحرب والمطاردة والقوة ، والغلبة ليست للظالم ، بل للمؤمنين بالله وهؤلاء الذين يقودهم موسى وليعبر بهم البحر الأحمر من أمام عيون موسى ويغرق على مرأى من الجميع فرعون مصر وجيشه أجمعين .

أليست هذه معزوفة تنبض إيقاعًا وجدانيًا رائعاً وترسم صورة حية لكل الأجيال لتؤكد عظمة الخالق ومسيرة تهذيب الروح الإنسانية .... ؟

ومن عظمة منظومة النعم التى أسبغها الله على بنى إسرائيل أن آتاهم التوراة لتكون هداية لهم ودستورًا لإيمانهم :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

«سورة الجاثية الآية ١٦»

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾

«سورة البقرة الآية ٥٠»

﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾

«سورة الشعراء من الآية ٦٣»

أنشودة مرئية ومعجزة شاهدها بنو إسرائيل .

﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾

«سورة الشعراء من الآية ٦٣»

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾
ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

«سورة البقرة من الآيتين ٥١-٥٢»

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

«سورة البقرة ، الآية ٥٣»

وأخذتهم الصاعقة عندما قالوا لموسى :

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

«سورة البقرة من الآية ٥٥»

وأنعم الله على من أخذتهم الصيحة وماتوا بأن بعثهم من موتهم .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

«سورة البقرة من الآية ٥٦»

ولقد ظللهم الغمام وأنزل الله عليهم المن والسلوى طعاماً طيباً :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

«سورة البقرة من الآية ٥٧»

وتفجر لهم من الحجر الذى ضربه موسى بعصاه اثنتا عشرة عيناً وشرب كل سبط من عين :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ
ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ ﴾

«سورة البقرة من الآية ٦٠»

إن إيقاع هذه النعم التى خصها الله بنى إسرائيل تعبر عنها إشراقات أحرف القرآن وتصدح بفيضها موسيقى الكلمات التى اختص بها السابقون من بنى إسرائيل .

وإن كانت النعمة قد عمت السلف فإنها تكريم لأجيالهم التى تتواتر على وجدانهم أصداء هذه النّعَم فى لغة القرآن الذى أُنزل على محمد ﴿ ﷺ ﴾ ، وأيضًا فلقد كانت النعمة الكبرى والمعزوفة السرمدية بدخولهم الأرض المقدسة وقيام أُمتهم ودولتهم التى وعد الله بها إبراهيم خليل الرحمن :

(لنسلك أورث هذه الأرض)

إلا أنهم تجاهلوا أن نسل إبراهيم هم أولاد إسماعيل وإسحاق ومدين ، وخصُّوا أبناء يعقوب « إسرائيل » الذى هو ابن إسحاق بهذا الوعد ، ودخلوا

الأرض المقدسة . وأقاموا مملكتهم الأولى التى حكمها داود وبعده سليمان اللذان دام ملكهما ٧٣ عامًا كان فيه بنو إسرائيل خيار الله وصفوته إيمانًا وتوحيدًا ، وعدلاً حتى مات سليمان .

وعاود اليهود سيرتهم الأولى من الإفساد وظلُّوا على حالهم من التعصب حتى سباهم بختنصر فيما يعرف « بسبى بابل » .

وهكذا انتهى الوجود العنصرى لبنى إسرائيل ولم تقم لهم قائمة منذ عام ٥٨٦ ق. م .

وإن كان التاريخ يشهد تجميعًا لهم فى حدود التجميع الدينى بدون دولة فى قرون خالية وفى مجالات فاشلة ، وأصابهم الشتات فى كل دول الدنيا ، إلاَّ أن عنصريتهم كانت تدفعهم إلى العزلة والاعتزال مع حمل عقيدة العودة للأرض المقدسة .

إنهم يحملون تاريخًا مضى وانتهى، وشريعة موسى التى انتهت بشريعة عيسى وشريعة عيسى التى انتهت مع بعث النبى الخاتم محمد ﷺ ، ومع هذا فإن أجيالهم ترث الحقد والعصبية ولكنهم ينتظرون مستقبلهم الذى يعبر عنه القرآن الكريم فى محكم آياته وفق تقدير العزيز الحكيم ووفق مشيئته فيقول تعالى :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

« سورة الأعراف الآيتان ١٦٧-١٦٨ »

إنها إيقاعات مقدرة تؤكد أن هؤلاءِ المتعصبين المتعالين على خلق الله والذين يمثلون العنصرية البغيضة والقلق فى سكينة البشرية لابد وأنهم قد جبلوا على العناد والصلف والخداع وعبادة النفس والأهواءِ الضالة .

فهم لا يسمعون إلا أصواتَ أهوائهم ولا يترنمون ترانيم السلام مع كل البشر .

إنهم يزرعون فى ضمير أجيالهم نبات الحنظل الذى لا ينبت إلا فى الصحارى القفر وذلك لأن نفوسهم قفر مثل هذه الصحارى ولا يذوقون إلا مرارة هذا الحنظل فقد عشقوا المرارة ولا يستطعمون شهد الأُخوة الإنسانية ولا يُطْرِبُهُمْ لحن الوحدانية والعبودية لله الواحد القهار، وإن لحنهم المميز لا يخرج عن حدود مزمورهم الذى يتغنونْ به جيلاً بعد جيل :

على أنهار بابل هناك جلسنا

بكينا أيضًا عندما تَذَكَّرْنا صهيون

على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا

لأن هناك سألنا الذين سبونا كلام تَرْنيمة .

ومُعَذبونا سألونا فرحًا

قائلين: رنِّموا لنا من تَرْنيمات صهيون

كيف نُرَنِّم ترنيمة الرَّب فى أرض غريبة ؟

إن نسيتُك يا أُورشليم تُنْسَى يمينى

لِيَلْتَصِقْ لسانى بِحَنَكِى

إن لم أَذكرك

إن لم أُفضلك على أعظم فَرْحِى

اذْكر يا رب لِبنى أدوم يوم أُورشليم

القائلين : هدوا هدوا

حتى إلى أساسها

يا بنت بابل المخربة طُوبى لمن يُجَازِيكِ جَزَاءك الذى جَازَيْتِنا.

طُوبى لمن يُمْسِك بأطفالك ويضرب بهم الصخرة

«المزمور - ١٣٧»

هكذا هم يترنَّمون ويتوعدون سلام البشرية وأطفال الأجيال غير الإسرائيلية وكذلك يترنَّمون بنشيدهم الوطنى الذى يقولون فيه :

نعود للوطن

وطننا إسرائيل

إنه الآن صغير

ولكنه سيكبر ويتوسع

وسنبنيه بأيدينا هذه

من النيل إلى الفرات.

وأيضًا يزرعون فى وجدان أجيالهم شهوة القتل والتدمير فيصنعون حلوى الأعياد فى صورة العرب ليشتريها الأطفال ويأكلونها أو يدمرونها ويدوسونها بالأقدام .

إنهم إخوة فى الإنسانية . وهم أبناءُ عمومة ، فهم أبناء يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم والعرب والمسلمون أبناء إسماعيل بن إبراهيم .

فلماذا انفردوا بالعنصرية والحقد والكراهية للبشرية جميعًا .. ؟

إنهم يُحَمِّلون الإنسانية ما أصاب أجدادهم ونسوا أن أجدادهم أصابهم من جراء عنصريتهم وتعاليهم على الله وعلى رسله وعلى الخلق أجمعين إنهم يتوعدون البشرية جمعاء .

فمن التلمود يقولون :

نحن شعب الله المختار فى الأرض وقد أوجب علينا أن يفرقنا لمنفعتنا ، ذلك لأنه يعلم أننا نحتاج إلى نوعين من الحيوان ، نوع أخرس كالدواب والأنعام والطير ونوع ناطق كالمسيحيين والمسلمين والبوذيين وسائر الأمم من أهل الشرق والغرب، فسخرهم ليكونوا فى خدمتنا ، وفرقنا فى الأرض لنمتطى ظهورهم ونمسك بعنانهم ونستخرج فنونهم لمنفعتنا ، لذلك :

يجب أن نزوج بناتنا الجميلات للملوك والوزراءِ والعظماءِ وأن تكون لنا الكلمة العليا فى الدول وأعمالها فنفتنهم ونُوقع بينهم وندخل الخوف عليهم ليحارب بعضهم بعضا وفى ذلك كله نجنى الفائدة الكبرى .

« إسرائيل والتلمود إبراهيم خليل أحمد ص ٧٢ »

وإذا كان العالم هو الهدف العام لبنى إسرائيل إلا أن العرب والمسلمين هم الهدف الخاص والمباشر لهم ولهم، مخطط تجاد الوطن العربى ، ولقد نُشِر هذا المخطط فى مجلة (كيفونيم) . فما هى المخططات ذات الأولوية ... ؟

مصـــــر :

يرون أنها دولة بها صراعات داخلية ولم تعد مصر تمثل أية مشكلة استراتيجية ، وأنه من اليسير عليهم ردها إلى الوضع الذى عاشته عقب حرب يونيو ١٩٦٧ فى أقل من ساعتين ، وأن استعادة سيناء بمواردها هدف رئيسى وأن تقسيم مصر إلى أقاليم جغرافية ودولة قبطية فى صعيد مصر هو مفتاح التطور التاريخى فى المدى الطويل وهو مقدمة لتحقيق اسرائيل من النيل إلى الفرات .

سـوريـا :

إن تفجير سوريا إلى أقاليم محدودة على أساس عرقى أو دينى هدف ثابت وأنه من الضرورى إنشاء دولة شيعية على طول الشاطئ ، ودولة سُنّية فى منطقة حلب ، ودولة أُخرى فى دمشق ، ثم وحدة درزية يمكن أن تطمح إلى إنشاء دولة خاصة بهم على أرض الجولان تتكامل مع حوران وشمال الأُردن، وهم يخططون لتحقيق ذلك الآن.

العـــراق:

إن العراق الغنى بالبترول وبالصراعات الداخلية فهو على خط التسديد الإسرائيلى فتفكيكه ضرورة قصوى لأنه أخطر تهديد لإسرائيل، وقد استطاعوا دفع امريكا لغزو العراق ليضعوا أيديهم عليه.

الأردن :

إن الأُردن هدف استراتيجى عاجل، فنهاية الملكية ونقل السلطة إلى أيدى الغالبية الفلسطينية هما ما ينبغى أن تتوجه إليه السياسة الإسرائيلية ، ثم إن تهجير عرب الضفة الغربية لنهر الأُردن شرقًا فى ظرف سلام أو حرب ومع تجميد نموهم الاقتصادى هما ضمانتا التغيرات المقبلة.

شبه الجزيرة العربية والخليج :

إن شبه الجزيرة مهيأة بأكملها للتحلل بفعل الضغوط الخارجية وتلك حال السعودية ، فإن تعاظم الصراعات الداخلية وإسقاط النظم الأُسرية جزء من منطق البنيات السياسية الراهنة ولصالح إسرائيل وبعد غزو العراق يطالبون بالمدينة المنورة وجنوب عمان فهى أرض سبأ .

إن أولى الخطوات تتمثل فى :

- تدمير القوى العسكرية لهذه الدول، وقد نجحوا فى ذلك .

- خلق كل الأسباب التى تؤدى إلى المواجهة بين العرب بعضهم البعض .

هذه هى فلسفة التخطيط الإسرائيلى الموجه ضد الأمة العربية .

وهذه رسالة وجدانية لقادة الأمة الإسلامية والعربية ورسالة إلى كل الأجيال المقبلة .

ولكن ما هو مستقبل بنى إسرائيل فى نصوص القرآن ... ؟

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

« سورة الأعراف الآيتان ١٦٧-١٦٨ »

وأيضًا يقول عزَّ وجل :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ

وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾

«سورة الإسراء الآيات ٤-٨»

ثم يقول :

﴿ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

«سورة الإسراء من الآية ١٠٤»

المـــراجـــع

١ـ القرآن الكريم .

٢ـ حياة محمد ... (محمد حسين هيكل) .

٣ـ السيرة النبوية ... (لابن كثير) .

٤ـ صحيح مسلم .

٥ـ صحيح البخارى .

٦ـ سير أعلام النبلاء للذهبى .

٧ـ سيرة ابن هشام .

٨ـ الاستيعاب : لابن عبد البر .

٩ـ تاريخ العرب وعصر الرسول ... (عبد الفتاح شحاته) .

١٠ـ نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين محمد الخضرى .

١١ـ التاريخ الإسلامى ... (أحمد شلبى) .

١٢ـ القبس الوضاء فى سيرة خاتم الأنبياء محمد الطيب النجار .

١٣ـ أحسن القصص ... (على فكرى) .

١٤ـ أسباب النزول ... لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى .

١٥ـ فجر الإسلام ... (أحمد أمين) .

١٦ـ محمد المثل الكامل ... (محمد أحمد جاد المولى) .

١٧ـ دائرة معارف القرآن العشرين... (محمد فريد وجدى) .

١٨ـ من أنباء الرسل ... (عبد السلام محمد بدوى) .

١٩ـ الكتاب المقدس ... (عبد الواحد وافى).

٢٠ـ اليهود فى بلاد العرب ... (إسرائيل ولفنستون) .

٢١ـ بنو اسرائيل فى القرآن والسنة ... (محمد سيد طنطاوى) .

٢٢ـ الصهيونية العالمية ... (عباس العقاد) .

٢٣ـ الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) .

٢٤ـ تفسير ابن كثير .

٢٥ـ الإسلام ما هو؟ ... مصطفى محمود .

٢٦ـ الدستور القرآنى والسنة النبوية فى شئون الحياة ... (محمد عزة دروزة) .

٢٧ـ تفسير البيضاوى .

٢٨ـ عقيدة المسلم ... ... (محمد الغزالى) .

٢٩ـ بنو إسرائيل ... ... (عايد طه ناصف) .

من إصدارات المركز الإعلامى للدراسات والبحوث القومية والاستراتيجية

١ - الاستراتيجية الدولية فى منطقة الخليج العربى :
مشوراب مركز الخليج العربى (٦٢) جامعة البصرة العراق ١٩٨٢م .

٢ - إعجاز القرآن وبناء الإنسان ١٩٨٨ م :

٣ - بنو إسرائيل ١٩٨٩م :

٤ - البيت النبوى :

٥ - الإعجاز الوجدانى فى القرآن.

٦ - الإعجاز العلمى فى القرآن.

٧ - تاريخ محو الأمية فى مصر .

٨ - متى تنتهى إسرائيل.. ؟

٩ - نهاية إسرائيل المعاصرة ومعركة الخلاص.

١٠ - القرآن ونهاية إسرائيل .

١١ - بناء الإنسان فى رحاب القرآن.

١٢ بنو إسرائيل وأكذوبة السامية .

الفهرس

	رقم الصفحة
تمهيـــد	٥
البـــاب الأول	٩
المعزوفة الوجدانية التي مهدت لرسالة الإسلام	
البـــاب الثانى	٣٣
الغزوات الوجدانية للرسالة الإسلامية	
الغزوة الإسلامية الأولي لوجدان بني هاشم	٣٥
أدوات الإقناع الوجدانى	٣٦
مصاعب الإقناع الوجداني للأهل والأقارب	٣٧
الغزوة الإسلامية الثانية لوجدان اهل مكة	٣٩
حرب القهر والإذلال والمقاطعة	٤٣
الترغيب فى الجاه والسلطان	٤٥
آداب الغزو الفكرى « وقوة الحجة »	٤٨
غزوات فى ساحة القيم الإسلامية	٥٦

الغزوات الوجدانية لضمير المرأة عبر العصور ٥٨

مواجهة السيئة بالحسنة ٦٠

السمو الروحى لعقيدة المسلم ٦٠

غزوات الصمود الاقتصادى ٦٤

موقف أهل الطائف من محمد ﷺ ٦٩

الإسراء والمعراج ٧١

غزوة وحلف عام ٦٢٢ ميلادية ٧٧

الغزوات الوجدانية لشبه الجزيرة كلها ٨٠

محمد ﷺ يرفض الحرب ٨٢

عهد الموادعة ٨٣

مقدمة الغزوات الوجدانية الإسلامية لعقيدة اليهود ٨٥

الغزوات الوجدانية لعلماء النصارى واليهود ٩٠

الباب الثالث ٩٥

آداب ورموز الأخلاق الإسلامية وآثارها الوجدانية

الفصل الأول : المعيار الوجدانى للشخصية الإسلامية ٩٩

الفصل الثانى : القيم الجمالية والإقناعية التى يجب أن يتميز بها المسلم ١١٣

الفصل الثالث : ميثاق أخلاق الأمة الإسلامية ١٢٨

الباب الرابع ١٥٥

المشاعل الوجدانية المميزة للشخصية الإسلامية

الفصل الأول : مبادئ التفاعل الإيجابى للمسلم ١٥٧

الفصل الثانى : الموسيقى الوجدانية ١٧٠

الفصل الثالث : الإعجاز الوجدانى ومستقبل بنى إسرائيل ١٨١

المراجع : ٢٠٢

صدارات المؤلف : ٢٠٤

الفهرس : ٢٠٥